

القسم الثالث
آسيا الشرقية

الكتاب الاول

آسيا الشرقية (من ١٢٠٠ الى ٣٠٠ ق.م)

تقاسم قطران في العصور القديمة رسالة اخضاع آسيا ، قطران يملكان قوى فعالة جبارة ، ولكن لكل منها أهواء وأساليب على طرفي نقيض : أنها الهند والصين . ولا حد لعوامل التباين بينهما من حيث الشكل الجغرافي والأهداف والتطور . ومع أن كلا منهما اتبع طريقه الخاصة فقد بقيا على اتصال لا بل تلاقيا مراراً - كما حصل في اندونيسيا - ولكن اختلفت أساليب توسعها حتى استحال على المرء ان يقارن بينهما او يدرس في وقت واحد مراحل حضارتهما . لذا سنعمد ، حباً بالإيضاح ، الى تحديد مدى كل منها ، والتدقيق في خصائصها الأساسية .

ان للهند^(١) قوة تخفيرية تدبغ كما يبدو من طبيعة أرضها . وتفضل الهند ان تستعمر سلباً ، مع أنها عرفت حوادث دامية في مختلف مراحل تاريخها . وان السبب الذي يظهر منذ طور ما قبل التاريخ بين الهند وبلاد آسيا الجنوبية الشرقية يستند في العصور التاريخية الى تعامل تجاري اتسع مداه مع الايام ، وهجرة ترايدت فأنتجت من ثم أجيال خلاسين ، ودعاوة دينية لملتها احترام الغير وسداها الذمامح . وأخيراً هناك تأسيس « ممالك » مستقلة حسب النظم الهندية ولكن بشكل يتفق مع المحيط الذي قامت عليه . وهكذا فقد تدخلت الهند - ولكن على درجات متفاوتة - في برمانيا ، وفي معظم أجزاء الهند الصينية وفي جزر سومطرا وجافا وبالي الهندونيسية ، لا بل حتى في السيليب وبوريو . وفرضت الهند نفسها بخاصة بتفوق ثقافتها

(١) اننا نشكر للسفارة الهندية الجليلة في بيروت حسن التفاتها لمساعدتنا عليها على نقل الاسماء الهندية التي وردت في هذا المؤلف الى اللغة العربية نقلاً دقيقاً من حيث اللفظ والكتابة . وبمعنتها ساحة سعيدة للسيد لاطف أحد ابناء سرها السيد راح لما أبداه نحواً من عطف .
الناشر

ولكن عجزت عن الاستمرار طويلاً أمام كرات التقاليد الوطنية المحلية التي عرفت حياة جديدة .

واختلفت أساليب الصين اختلافاً كلياً : فهي تخضع البلاد حرباً وتفرض عليها قوانينها وعوائدها وديانتها ولغتها وكتابتها . وليست السيطرة بعرف الصين حصيلة تدخل وتسلسل بل نتيجة غزو كامل تفرض معه ، بالعنف ، مجموعة من النظم متناسقة تتوافق مع تقاليد وأخلاق الشعب المغلوب على أمره . ولم يجبر الذين أخذوا بعظمتها وبأسها وأرادوا حذو حذوها على تبني حروبها فقط بل أيضاً على تقليد نظمها وأساليب ثقافتها .

ولكن هناك مع هذا مناطق تقابلت فيها الصين والهند وتشابكت فيها آثار حضارتها : كالهند الصينية ، ويدل بوضوح هذا الاسم المركب على اقتسام البلدين مناطق نفوذ هياك ، والتركستان الصيني الذي قدر له تاريخياً أن يبقى دوماً ممر عمور ، والنيبال حيث تتشابك الثقافتان بشكل يثير العجب ، والتبت التي تستمد عناصرها الدينية والفنية من هذه الحضارة وتلك . وهناك مناطق عدة تبعد كثيراً أو قليلاً عن حدود البلدين تثبت تفوق حضارة الهند أو الصين فيها إن دقق المرء في خصائصها . وغدت الديانة البوذية أقوى عناصر هذا التلاق ، وقد ولدت في الهند في القرن السادس ق. م. وأصبحت من أهم عوامل التوسع الهندي . وقد اقتبلت الصين البوذية في القرون التي تلت العهد المسيحي .

ولم تنفصم دون شك عرى العلاقات بين آسيا الشرقية والعرب طوال هذه الفترة التي حددوها اعتباطاً من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ٣٠٠ ق. م. ولكن آثار هذه العلاقات هي أشد غموضاً وأقل عدداً من آثار الفترة السابقة حيث سجلنا تارة تسلسل حضارة بلاد الرافدين إلى زميلتها « حضارة الهندوس » وطوراً علاقات الصين في طورها السابق للتاريخ مع أوروبا الشرقية .

الفصل الأول

الهند

قد لا يقدرّون في الغرب أهمية الحضارة الهندية حتى قدرها .
حصائص الحضارة الهندية الاساسية
فهي رأّت ديانتين من أهم ديامات العالم تترعرعان على أرضها :
البرهمانية والبوذية . ولعبت الهند في آسيا الدور الذي قامت به بلاد اليونان في أوروبا . ونسبة
الى الحضارات القديمة التي تعد الحضارة الهندية جزءاً منها اذنشأت في زمن يحدونه تقريباً ما بين
سنة ١٥٠٠ سنة ٨٠٠ ق . م . فإن لهذه الحضارة صفة استثنائية اذ هي لا تزال حية حتى
أيامنا دون ان تتخلّى عن خصائصها الاساسية التي عرفت بها منذ أوائلها التاريخية ، ان « المغامرة
الهندية تتتابع أمام بصرنا اذ هي لا تستند فقط بكليتها الى الماضي السحيق ، كأحد مصر
وبابل الميتة » (ب . ميل P. Mele) . وهذه الديومة بعص الاسباب التي يجدر تحديدها والتي
بدونها يصعب فهم تطور الهند القديم و تجددها المستمر على مر القرون .

هناك ثلاث صفات رئيسية تحدد الهند وتفسر نوعاً ما هذه الديومة : فالهند تحب التقليد
وهذا ما يسمح انتقال العادات من السلف الى الخلف دون تحوير ؛ وهي تصب نحو الوحدة مع ان
التمقيد والتناقض هما من مقوماتها ؛ وهي تهوى النشريع والتصنيف والتقسيم ، وهذه عوامل
تهيب بها الى اعتبار أعمال كثيرة تبدو شديدة الاختلاف كأنها أمور طقسية مما يخلق بينها من
نم تجانساً أصيلاً . ولم تظهر هذه الخصائص بمثل هذا الوضوح منذ بدء تكوين الحضارة الهندية .
ولكننا نلاحظ تكوينها رويداً رويداً منذ عهد قديم ، ونشاهد تطورها بصورة حتمية نحو
القصد الذي يوافقون عليه في زمن لاحق ، لا بل نراها تتحد اتحاداً وثيقاً مع مجمل العناصر
الثقافية ، حتى انه يصعب جداً تحديد زمن ظهورها ومراحل تطورها .

ان للتقاليد في الهند قوة عظيمة يصعب على رجال الغرب ان يدركوا مداها . وهكذا فإن
النصوص الأدبية التي ترتكز عليها النظريات الهندية قد ألفت دون شك منذ عهد قديم جداً ،
وبقوا يتوارثونها بصورة شفوية مدة يعجب المرء لطولها قبل ان توضع كتابة . وان جرى في

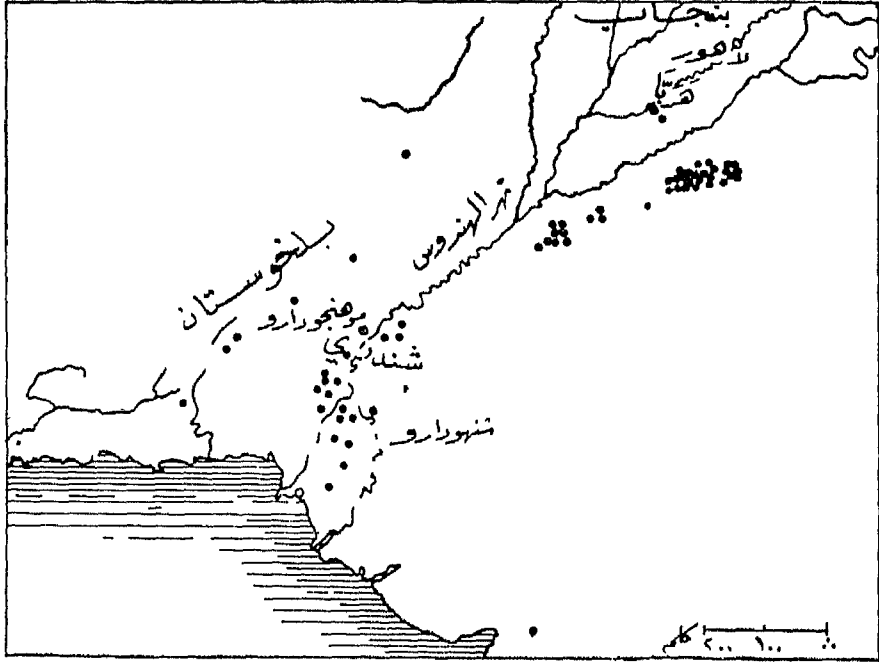
هذا المجال بعض التحوير، فانه يماثل دون ريبة التحوير الذي تعودنا رؤيته في مضمار الفن الهندي أي أنه يظهر رويداً رويداً ، وقد حور شيئاً فشيئاً الموضوع الاولي ، ولكنه أبقي طوال آلاف من السنين على كنه الموضوع الأساسي .

أما اتجاه الهند نحو الوحدة فانه ينمو مع الزمن . ويفقه الفكر الهندي بدقة وسرعة صفة الكثرة والتعدد التي تشمل كل شيء . ولكن بدل ان يتنكر لها او يحولها الى مجاز اخرى بقصد اذابتها فانه يكتفي بملاحظة نتائجها وكتامة بيانها . وهو يجد بين أجزاء هذه الكثرة عروة وثقى : أي الوحدة الإلهية . وهو يفسر هذه الكثرة بأنها تعابير مختلفة لنفس المبدأ الموحد . لذا سعى طوال القرون ان يصنف كثرة المظاهر في فئات محددة المعالم تصبح كلها متماثلة في الاصل . هذه هي حالة الزون الهندي يدور سكانه الإلهيون الذين لا حصر لهم ، في فلك بعض الآلهة الكبار ويصبحون من ثم تعابير مختلفة عنهم ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الآلهة ليسوا إلا تجسيدات للكائن الواحد .

ويستند طبعاً هذا الاتجاه نحو الوحدة على وجوب حصر كل المجتمع الإلهي والانساني ضمن القوانين . وخير مثال في هذا المضمار هو وجود الطبقات ، وهذا مظهر اجتماعي يختص بالهند ، لا سيما في الشكل الذي يرتديه : فالكلمة فرنا Varna ، أي « اللون » تدل بوضوح على المشكلة الاجتماعية التي يسند اليها التقسيم الطبقي والذي كان يقابل الغزاة المنتسبين الى الجنس الابيض والمواطنين الأصليين ذوي اللون المشبع . وقد طبق أولاً هذا المبدأ ، في مراحل التطور التاريخي ، على فئتين من الأشخاص ، هما طبقة رجال الكهنوت ورجال الحرب العلمانيين . ثم طبقوه على فئة ثالثة — فئة « الرجال الأحرار » — وعلى فئة رابعة — فئة « الفلاحين » — وتشعب أخيراً هذا المبدأ على أساس المهنة او الوظيفة ، وذلك بصورة حصرت تدريجاً مع الزمن حتى اعتبر الذين لم يصنفوا في طبقة ما بسبب « دنسهم » المفترض كمنبوذين . وان كان يبدو بأنهم لم يضعوا تدابير في غاية الشدة في بدء الديانة الهندية بين أفراد الطبقات النبيلة ، وإن سمحوا فيما بعد بالتزاوج بين أفراد ينتمون الى فئات مختلفة ، نشهد مع هذا اتساع ذاك المذهب حتى غدا تشريعاً جامعاً شمل مختلف تعاليم ما وراء الطبيعة والسنن الكونية . ونستطيع ان نتخذ أمثلة على وجهة النظر هذه من مختلف مرافق الحياة ، نسردها مثلاً مجال الاشارات « المتكلمة » (مدرا ، هستا ، أساما الخ Mudrā, Hastā, Asana) الذي يثبت لنا هذا التصنيف المسند الى الفنون الطقسية . انها اشارات طقسية عندما يقومون بها أثناء تقديم الذبائح ، وتستمر على صفتها هذا إن نفذت أثناء الرقص او على خشبة الملهى ، او في فن الرسم الإلهي ، او في المواضيع المنقوشة والملوونة . ان الطقس الديني يشمل بصورة عملية أقل نشاط في العالم الهندي ، إذ لا وجود للشخص او للشيء إن لم يحمل اسماً (نام Nāma) . ويدخلهم هذا الاسم ضمن حلقة يحدد جوهرها أحد الطقوس : وهكذا يستطيع المرء الذي ينتمي الى طائفة الغساليين ان يقوم بأي مهنة اخرى

شرط ان تطغى عليها صفة الغساليين؛ فهو كاهن أقل شأنًا من غيره لأن مهمته مبدئيًا هي غسل الحرق التي تصبح وسخة أثناء الحفلات الطقسية .

لذا غدا لزماً على الهنود ان يحددوا بكل دقة جميع الأنظمة التي تمت الى طقوس العبادة . وهذا ما سعت اليه كتب الأدب الهندي الكثيرة منذ مجيء الآريين حتى عصرنا الحاضر ، خصوصاً المؤلفات (شاسترا) التي تعنى بهذه الناحية التقنية او تلك . ومن العبث والحالة هذه



الشكل ٣١ - الهند في الزمن السابق للآريين . الحضارة المدعورة حضارة الهندوس .

اذن ان يسعى المرء لتفسير الحوادث الهندية خارجاً عن معانيها التقليدية ، وجلّ ما نستطيع القيام به هو ان نطبق على هذه المعاني أسلوب بحث علمي .

هناك عامل يجعل من هذه الدراسة مسألة دقيقة جداً : اذ لا يقيم الهندي تحديد الوقت والاصول وزناً لمشكلة تحديد الوقت كما يفهم الغربيّ هذا الامر . ولماذا يهتم هذا الشأن إذ ان لا قيمة للحياة الانسانية ولسرد متطلباتها إزاء السعي للوصول الى الكائن المجرد ، هذا السعي الذي تأمر به ديانة الهندي ومبادئ فلسفته ؟ وعلى من يريد دراسة إطار الهند التاريخي ان يكتفي ببعض المعلومات تكون كالاروم ، أو المقارنات مع حوادث لا تمت الى الهند ، أو

التخرصات أو الاستنتاجات. وان لم يرد التحيز عليه ان يبدي الكثير من أصالة الرأي ويكتفي غالباً بتخمينات تقديرية .

ولا يقدم لنا علم الآثار معونة تذكر حتى القرن الثاني ق . م . هذا ان استثنينا بعض آثار وادي الهندوس التاريخية . إذ لم يتصل بنا أي أثر من مواد صلبة يعود الى ما قبل هذا التاريخ الذي يتفق مع التفتح الأول للفن البوذي . ويظهر بأن استيطان الآريين كان سبب قهقري لفن البناء اذ لا نجد شيئاً مماثلاً لمدينتي موهنجو - دارو وهرابا Mohenjo-daro Harappa . وكانت مباني عهد الديانة الهندية الاول من خشب وآجر ، ولم يبق لها أثر نسبة لطبيعة أرض ومناخ الهند . وما يثبت هذا الظن بقايا قصر أسوكا في باتلپترا (القرن الثالث ق . م) والمباني الحجرية الاولى في القرن الثاني ق . م . التي تقلد بصورة واضحة المباني الخشبية

ولوضع دراسة عن هذه الفترة الطويلة جداً التي تمتد من مجيء الآريين (قبل القرن السادس عشر) حتى القرن الثاني ق . م . يضطر المرء الى استقاء معلوماته من النصوص الادبية . ويطلق على هذه النصوص اسم فيدا Veda « المعرفة » وهي مجموعة المعارف التي أتى بها الآريون والتي ازدهرت رويداً رويداً على الأرض الهندية . وتستند هذه النصوص الى وحي هبط على الحكماء (ريشي Rishi) ونقلوه الى الخلف . فهي تقسم لثلاثة أقسام : سمهتا Samhita أو « مجموعة » وهي تحوي خصوصاً على أناشيد دينية وصلوات وعبارات طقسية ؛ برهمانا Brahmana « شروح » أو تعليقات لما جاء في « السمهتا » ؛ وأخيراً أبنشد Upanishad أو « دروس » لها صفة السر . وتضاف الى هذا كله الفيدانتا Vedānta أو ملحق للفيدا يوافق مضمونها التقليد والتي لا يزالون الى يومنا هذا يضيفون عليها .

ومن المحال تحديد تواريخ لأجزاء فيدا المختلفة إذ وضعت معظم النصوص وانتقلت الى الخلف بصورة شفوية وذلك حتى عهد قريب (القرن الحادي عشر المسيحي ؟) . ويجمعون على القول بأن السمهتا هي الأقدم عهداً ، وتعود الأفضلية في هذا المجال الى الريغفيدا Rigveda التي تحتوي على عشر « حلقات » (مندولا Mandala) ، هذا مع العلم بأن الحلقة العاشرة هي الأقل قدماً من زميلاتها . وتعيد اليجرفيدا Yajurveda والسامفيدا Samaveda مقاطع عدة من الريغفيدا مما يدل بأنها ظهرت بعدها . ومما لا شك فيه بأن الاتهرافيدا Atharvaveda التي تحتوي على عبارات سحرية هي أحدثهم عهداً . وان كان ممكناً ان نعيد تاريخ أقدم فصول السمهتا الى عهد وصول الآريين ، أي ما بين سنة ١٦٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق . م . فقد يبدو ان البرهمانا والابنيشاد لم تظهر إلا في الفترة التي تراوح ما بين القرنين العاشر والسادس ق . م . ثم رأت النور نصوص السوترا Sutra التي تعد جزءاً من الفيدانتا والتي ترقى الى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ تقريباً ، وهي سبقت بقليل الآثار الاولى للفن البوذي . ولكن نعود الى القول بأن هذه التواريخ ليست إلا تقديرية .

كما طغى الغزو الآري على كنه بلاد الهند العريق السابق ، هكذا فرض هذا
اللغات والمخطوط
الغزو لغته التي غدت بعد فترة قصيرة ، كما يظهر ، اللغة الكهنوتية : أعني
السنسكريتية . ولا تزال قائمة عقدة معرفة لغة البلاد التي غلبت على أمرها . فهناك اعتقاد ، لا
يرتقي الى عهد بعيد ، بأن هذه اللغة تمت الى اللغة الدرافيدية ان لم تكن شكلها الاساسي اذ
لاحظ بعضهم وجود لغة درافيدية في عصرنا الحاضر في بلاد بلوخستان ، أعني اللغة البراهوي
Brahui التي تكتنفها من كل جانب اللغات الهندو - أوروبية . وبعد ان فصمت جحافل الآريين
العري بين هذه اللغة وأصولها ، غدت البراهوي شاهداً حياً على وجود لغة سادت ، قبل مجيء
الآريين ، على جزء كبير من شبه الجزيرة الهندي .

وقد جلب الآريون أنفسهم اللغة السنسكريتية ، لغة فيدا ، وهي تعد الفرع الهندي من
المجموعة اللغوية الهندو - أوروبية . وفي النصوص الاشد قدماً (الريفيدا) تقدم لنا اللغة
السنسكريتية الفيدية تشابهاً بارزاً مع لغة أفرسته الإيرانية ، تشابهاً يستمر ولو مجزئاً في النصوص
الآخرى . ولكن يوجد اختلاف واضح بين اللغتين الفيدية والافستية بسبب التجديدات . وفي
هذا المجال كما في مجالات كثيرة أخرى وفقت الهند بين الجديد والقديم وأتاحت لها الاستمرار
معاً مما ولد تعقيداً يدعو غالباً الى الدهشة .

والسبب هو نفسه الذي نجده دوماً والذي يظهر خصائص الروح الهندية : فالسنسكريتية
هي « لغة كهنوتية تحصر مهمتها في التعبير عن فكرة موجهة ذات أهداف سحرية .
فللشكل أهمية أكثر من المعنى ، وللمعنى السحري أفضلية على معنى الكلمات ، وتخضع
الكلمات لترتيب رمزي معقد » (ل. رنو L. Renou) . لذا نجد بكثرة التعابير القديمة وذلك
حرصاً على عدم مس التقاليد مع ما هنالك من ضرورة ملحة للتجديد .

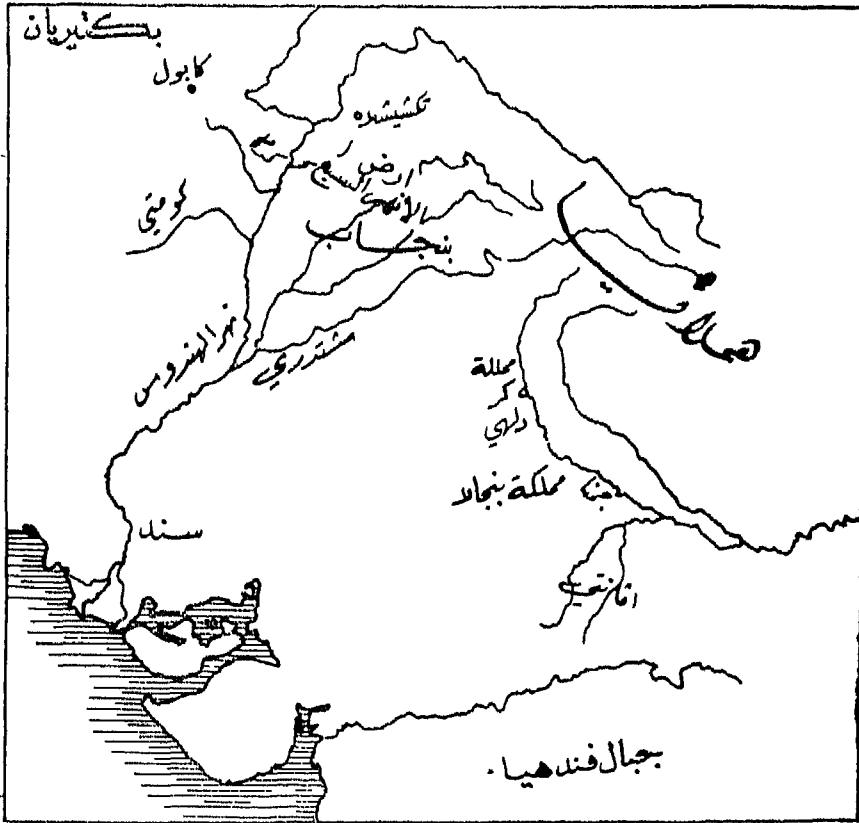
ولكن مع البرهانا تبدو اللغة السنسكريتية الكلاسيكية أكثر تحرراً إذ هي تستند الى
قواعد محددة وكلمات دقيقة المعنى جداً . ومع الاوڤنيشاد تقترب هذه اللغة أكثر وأكثر من
اللغة المتداولة . ولكن جُمِدت على حالها اللغة التي تكونت وقد وصلت اليها على أشكالها القديمة .

وبصورة موازية للسنسكريتية نجد عدداً كبيراً من اللغات الكهنوتية او العامية التي نشأت
ومت وقد اشتق معظمها من السنسكريتية . ولكن احتفظ بلون محلي قد يكون أشد قدماً .

ويستعملون لكتابة السنسكريتية ٤٩ مقطعاً تحتوي على أحرف صوتية ونصف صوتية
وغيرها ، وفي اللغة قواعد لتصريف الأفعال واعراب الأسماء . وهكذا فهي تدخل ضمن اطار
اللغات الهندو - أوروبية وهي من ثم على طرفي نقيض مع اللغة الصينية التي سنأتي على
وصفها لاحقاً .

يبدو أن انشقاقاً حصل ما بين القرنين الثامن عشر والعاشر ق. م. على حدود
هضبة ايران الشمالية - الغربية بين القبائل الهندو - أوروبية التي كانت قد
لغة تاريخية

استوطنت تلك المناطق . وكانت تطلق على نفسها اسم الآريين Arya أو Airya . ولا يزال الجدل يدور حول أصلها . والنظرية التي تلقى اليوم رواجاً تأتي بالآريين من روسيا الجنوبية .



الشكل ٣٢ - الهند البراهمانية قبل سلالة الموريا

وقد وصلوا الى ايران باجتيازهم القفقاز ، ودخل الآريون الذين انشقوا عن الفرع الايراني الى الهند الشمالية - الغربية من منطقة وازيريستان الحالية او من وادي كابل ، وقد استوطنوا أول الأمر في البنجاب وهم الذين دمروا مدن وادي الهندوس، خصوصاً موهنجو - دارو وهرابا ، وحصل ذلك حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م.

واستناداً الى المعلومات التي تحتويها أقدم النصوص الفيدية التي يرجع عهدها كما يظن الى زمن استيطان الاوروبيين في الهند ، فقد سكن هؤلاء أول الأمر في المناطق التي تمتد من أنهر كابل وسوات Swat ، والكُرْمُ Krumu (كورام Kurram) ، والغومتي Gomati (غومال Gomal) ، وبسلاد الأنهر السبع في الشمال - الغربي حتى أنهر سرسفي Sarāsvatī

(سرسوتي Sarsuti) ، وشتدري Cutudri (ستلج Satlej) ، واليمنسا Yamuna (جمنا Gamna) شرقاً . وقد عرفوا شمالاً سلسلة جبال حملايا . وتذكر النصوص نفسها المحيط (سمندرا Samudra) ، مما يحمل على الظن بأن الآريين عرفوا مجرى نهر الهندوس السفلي (السند Sindh) حتى مصبه الذي تخيلوه آنئذ في درجة عرض أرفع مما هي عليه اليوم . ولم يتقدم الآريون الا قليلاً نحو الشرق اذ لم يذكروا نهر الغانج Gange الا مرة واحدة .

وحصل تقدم الآريين في هذه المنطقة الجغرافية المحدودة لانتصارهم في الحرب . وبعد ان انهارت كل مقاومة للسكان الاصليين اجبر هؤلاء على الخضوع لسيادة المنتصرين وأصبحوا لهم من ثم عبيداً ، أو هجروا نحو الجنوب والشرق حيث سيخضعون للفتح الاوروبي في خلال القرون اللاحقة .

وبعد ان استقرت القبائل الآرية في منطقة البنجاب تألفت فكوّنت أحزاباً ثم اتحدت وأُسست ممالك ، ومن المعتقد بأن هذه الأمور لم تقم دون معارك داخلية . وحوالي سنة ٨٠٠ ق.م (?) حيث ازداد تقدم الآريين نحو الشرق حتى انتقل مركز الثقل من البنجاب الى دواب Doab ، أعني الى المنطقة التي تمتد من سرسفتي الى ملتقى الغانج واليمنى . ولم يتم اخضاع هذه المنطقة عن تغلغل الروح الآرية الا قليلاً اذ اعتبر السكان الأصليون كأنهم يؤلفون طبقة (فرنا : لون) وضيفة جداً . وباستطاعتنا منذ هذه الفترة ان نتحدث عن الممالك الآرية ، وقد غدت دولة الكُرو (Kuru) أعظمها قوة وأشدّها مركزية . وقد تكون هذه المملكة قد أخضعت دولة البنكالا Pancala المجاورة وامتدت سيطرتها نحو الشمال - الغربي حتى وادي تكششلا Takshila (تكسيلا Taxila) ونحو الجنوب - الشرقي حتى ملتقى الغانج واليمنى .

ومن المقدر بأن تكون القبائل الآرية المستوطنة بين مجريي الهندوس والغانج قد بدأت تقدمها نحو الشرق حوالي القرن السادس ، فتأسست إذ ذاك بعض الدول والممالك في مناطق دلهي Delhi ، و « بلاد الوسط » (مدهيديشا Madhyadeśa) ، وفي اوده Audh (كوشالا Koshala و فيدها Videha) ، وفي البهار الجنوبي Bihar - مغدها Magadha) : وامتدت هذه الدول أيضاً جنوباً حتى جبال فندهيا Vindhya وملكت معاً مدناً مهمة عدة منها كوسمبي Kançambli على اليمونا وكاسي Kasi (بنارس Bénarès) على الفرنافتي Varanāvatī .

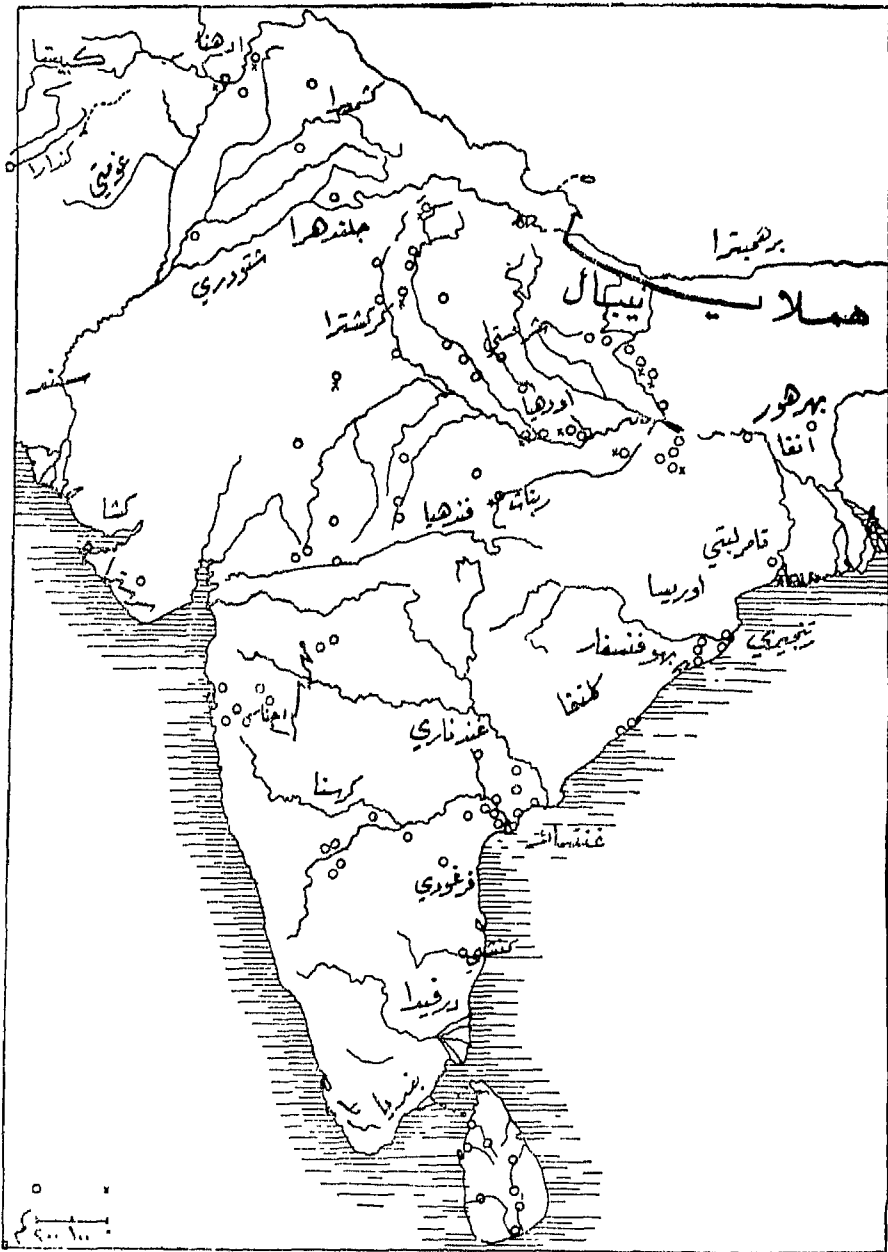
وبعد ان سعت مملكة الكُرو (دلهي) في العهد السابق لبسط سيطرتها حاولت الوصول الى الرئاسة ، وسعت للسيادة دولة مغدها (البهار الجنوبي) وكانت قد تشربت أقل من المناطق الغربية الروح الآرية وبقيت متأصلة فيها الخصائص الوطنية الأصلية حتى اعتبرها الآريون منطقة شبه بربرية . وأخذت على عاتقها الاستيلاء على حوض الغانج في الفترة التي تتراوح بين القرنين السادس والرابع . وفي هذا الوقت تغلبت سلالة الششناكا Cishnaka الآتية من أفانتي Avanti (أعني من مملكة العهد الآري السابق التي تقع في أقصى الجنوب) على سلالة البرههرا

Brihadratha السبق لا نعرف عنها في الواقع أى شيء . وأخضع ملوك السسونغا - ولا نعرف جيداً منهم إلا الملكين بيمبيسارا *Bimbisāra* (٥٣٨ - ٤٨٦ ؟) وأجاثاترو *Ajātaśatru* (٤٨٦ - ٤٥٤ ؟) وذلك للدور الذي لعباه في الأدب البوذي - البنغال ومنطقة كاسي (بنارس) وكوسالا (اوده) وفيدها (بهار الشمالي) . وبعد ان سيطرت مملكة مغدها على منطقة واسعة يؤلف مجرى الغانج بحورها نقلت عاصمتها من راجرهيها *Rajagriha* الواقعة في البهار الشمالي الى باتليترا *Pataliputra* (بننا *Patna*) على ملتقى السون *Sone* والغانج . وفي أواخر القرن الرابع ق . م . استبدل السيسوناغا على عرش مغدها بالنندا *Nanda* . وسيتابع هؤلاء العمل التوحيدي وسيترفع عنهم الموريا *Maurya* الذين سينجحون حوالى سنة ٣٢٠ بتأسيس أول امبراطورية هندية .

وبينما كانت مقاطعات الهند الآرية الشرقية تسعى لتنظيم نفسها واكتساب وحدتها ، غدت المقاطعات الغربية عرضة لتهديد غزاة جدد : إذ أخذت الامبراطورية الفارسية على عاتقها إخضاع المقاطعات التي على حدود مملكتها وذلك أيام كورش (٥٦٠ - ٥٣٠) الذي استولى على كاييشا *Kapisa* (منطقة كابول) ثم زمن داريوس (٥٢١ - ٤٨٦) الذي ضم الى ممتلكاته الجديدة غندهارا *Candhāra* (منطقة بشاور) ومحل بلاد بنجاب الوسطى حتى بياس *Bias* ، وأخيراً السند . وأصبحت هذه الحوادث بدء عهد اضطرابات أبقت مناطق الهند الشمالية - الغربية زمناً طويلاً على هامش الحياة الهندية السياسية الحقيقية ، إذ دامت السيطرة الفارسية زهاء قرنين وأعقبها تدخل جديد هو غزو جيوش الاسكندر الكبير (٣٢٧ - ٣٢٥) الذي سنأتي فيما بعد على دراسة نتائجه (انظر وجه ٦٠٧) .

لذا نستطيع ان نعتبر حكم الملك بيمبيسارا ذا أهمية إذ يكرس توحيد مناطق شاسعة في الشرق بينما يخلق انشقاقاً اجبارياً في المناطق الغربية تتسرب مرة ثانية من خلالها التأثيرات الايرانية كما حصل ذلك عندما أتى بها الآريون أنفسهم . ولكن يحمل هذا العهد أيضاً طابع حوادث دينية وروحية واجتماعية ستستمر نتائجها وقتاً طويلاً إذ حصلت تغييرات أساسية في الديانة الفيدية بتأثير البراهمة الذي تزايد مع الزمن . وبمناسبة هذه الحوادث ظهر تشريع حصر الجماهير في فئات وطبقات . وفرض البراهمة مبادئ روحية صارمة أخذت تحد من حرية الأخلاق . وبالاختصار فان مجموعة الحوادث التي تتكون منها الحضارة الفيدية أخذت تتطور نحو تشريع شكلي أوجب سلسلة من « الاصلاحات » . وتعددت المذاهب ، يعرض كل منها وسائل مختلفة تتعلق باحترام التقاليد والكهنوت ونيل التحرر ... وفي عهد ملك بيمبيسارا ظهر رجلان يعملان لهدف واحد : شاكيمني *Cakya* الذي أسس الديانة البوذية وذاك الذي يطلقون عليه اسم مهافيرا *Mahāvira* ، مؤسس المذهب الجايني *Jainisme* . وقد وجد كل من هذين المصلحين العقول الهندية مستعدة لقبول تعديل فكري بخصوص المسائل التي كانت تطرح

عليها بقوة متزايدة ولكن علينا ان لا نرى في هذه الاتجاهات المختلفة - ان انتسبت الى الديانة



الشكل ٣٣ - الهند في عهد سلالة الموريا

الفيدية القديمة او الى المبادئ البوذية والجانية الجديدة - ثورة دائمة تستند الى حرب مقدسة ، بل على عكس ذلك فهي تفتح وتوسع للمشاكل الروحية والميتافيزيقية التي تستوجب قواعد حياة تلتزم

أكثر فأكثر مع متطلبات الفرد. وهذه المشاكل كانت دون شك أساس تحرير التعليقات والشروح (البرهانا) والدروس ذي الصبغة السرية (الاوبنيشاد) التي زيدت على نصوص العهد السابق الفيدية، وهي التي مهدت السبل أمام شاكيمني وأعدت له تجاوباً لدى الأمة للمبادئ الخلقية التي كان يبشر بها ، هذه المبادئ التي اتخذت لها أساساً محبة جميع الكائنات. وعلينا ان نتخيل اذن هذا العهد - الذي يشمل تقريباً القرنين السادس والخامس - كطور يقظة روحية حقيقية تسير جنباً الى جنب مع مساع حثيثة نحو الوحدة السياسية واتصالات أكيدة مع الغرب . ومع هذا علينا ان ننتظر ردهاً من الزمن قبل ان نشهد التناقض الحقيقي بين التقاليد الفيدية والبوذية . ولا يظهر في هذه الفترة الاختلاف العميق بينها إذ لا تزال البوذية في مستهل عهدها ، وهي تعتبر مجموعة مبادئ روحية أكثر منها دينية ولا تنفي من ثم الزون الشعبي كما لا تتنكر بأي شكل لأسس الحياة التي كانت مقبولة . ولن تظهر هذه الاختلافات بوضوح إلا في القرون الاولى للعهد المسيحي عندما يجعل منها تحرير النصوص البوذية وتفتح الفن البوذي مادة ملموسة . ومع هذا تبقى هذه الاختلافات متسمة بالطابع الديني والاجتماعي دون المادّي .

الفصل الثاني

الحضارة الهندية قبل عهد الموريا

عندما دخل الآريون الى مقاطعات الهند الشمالية - الغربية - بين سنتي ١٦٠٠ و ٨٠٠ ق. م - وجدوا هناك سكاناً أصليين استرعت انتباههم خصائصهم العرقية ، إذ تنافت جداً ولا شك مع طباعهم . فقد كان لهؤلاء السكان بشرة دكناء ، وجعل منهم هذا اللون (فرنا Varna) أشخاصاً محتقرين في نظر غزاة بشرتهم ناصعة البياض . وكان أنف السكان الأفطس على طرفي نقيض مع أنف الفاتحين الأقنى ، وتكلموا لغة « معادية » أعني لغة لا يفهمها هؤلاء . وأطلق عليهم سادتهم الجدد اسماً شاملاً هو « الدرافيديون » ولكنهم حملوا أسماء في غاية الغرابة : آجا Aja (الماعز) ، سفرو Cighru (فجل حريف) ، دازا Dasa أو دازيو Dasyu ، باني Pani . وكان اسم دارا من الاسماء الأكثر شيوعاً ، واصبح له في العالم الآري معنى في غاية الخطأ أي عبد (المؤنث : دازي Dasi) . ولا نعلم إن كان اسماً الماعز والحريف يدلان على نظامين قد زالا هما المبدأ النباقي Végétalisme والمبدأ الذي يجعل من الحيوان جد الخليفة (الطوطمية Totémisme) . ومع هذا فانتنا نعلم بأن الدرافيديين كانوا يحيون حياة الرعاة . ويصطادون الجاموس والأسد بالقوس والنبال ، ويحتمون وراء أسوار تعززها كوم من التراب والأوتاد . ويعتقد بأنهم كانوا يمارسون ديانة خاصة Phallique مع أن معرفتنا في هذا المجال محدودة جداً .

ويظهر ان دازا الذين استوطنوا السهول اعتصموا عند زملائهم الجبليين وقاوموا بشراسة الآريين مدافعين بكل ضراوة عن مساكنهم وأسوارهم المنيع . ومع أن اخضاعهم غدا مراراً صعباً جداً فقد أحال الغزاة رجالهم الى عبيد واتخذوا من نساءهم خليلات . ومع أن الآريين يفتخرون غالباً بأنهم أخضعوا مناطق أعدائهم بالقوة - ولنا أدلة تحملنا على صدقهم - فلا يظهر بأنهم عاشوا بحالة حرب متواصلة مع السكان الأصليين ، إذ نقف على حالات تزواج بين الفريقين مما يثبت بأن الفاتحين في ذلك الطور القديم لم يشعروا - كما سيحدث فيما بعد - بضرورة الحماية من شرور التزاوج الخلاسي المنتظرة .

١ - خصائص الحضارة الفيدية

ان ابرز خصائص هذه الحضارة هي الحياة الزراعية المؤسسة على قوة الذبيحة
المستندات
الإلهية الفاعلة . ان عناصر ثروة السكان الأصليين وسادتهم الآريين تقوم
خصوصاً على نتائج القنص والزراعة وتربية المواشي . وعلاوة على القوس والنبال استعمل
الآريون فأساً من النحاس ، ولجأوا الى الفخاخ والحفر للايقاع بالطريدة الكبيرة (الفيل ،
الأسد ، ثم النمر) والى الكلاب لاكتشافها والى الخيل للحاق بها ، كما استعملوا الشباك لاصطياد
العصافير . ويظهر بأن صيد الأسماك لم ينتشر الا في عهد البراهمة ، ومع هذا فان الانهر وبحاري
المياه التي عاشت بقرها القبائل الآرية الاولى كانت قليلة الاسماك .

وغدت الزراعة أهم أعمالهم . وتألفت قطعان الماشية من الابقار الحلوبة والثيران والعجول
والاغنام والماعز . ولجأوا الى كلاب الحراسة لجمع القطيع ، وقاموا بهذا العمل مرة أقله في النهار ،
عند الظهيرة . وكانت البقرة منذ البدء حيواناً شبه مقدس اذ غدا قتلها وأكل لحما محرمين ، وقد
حلبوها ثلاث مرات في النهار . واستعمل الثور لجر العربات ولأعمال الفلاحة . وجمعوا شعر
الماعز للنسيج . وادخل الحصان بعض المزارع ضمن حيوانات القطيع واستعملوه للحراثة ولجر
العربات عند القيام بالأعمال الطقسية ، وكانوا يعتلونهم ولكنهم لم يستعملوه في الحرب . ولم يصبح
الفيل أليفاً الا منذ عهد البراهمة وغدا من ثم خير مساعد للانسان ولم يستعملوه في ذلك الوقت
في الحرب . ولا يظهر بأنهم جعلوا من الهر في ذلك العهد حيواناً داخلاً ، وغدا القطيع ملكاً
مشاعاً يجمعونه في بعض الحقول المسيجة وينزلونه معهم في البيت .

وتتم أعمال الحراثة — وللحراثة أسم مشترك بين الهنود والايروانيين — بواسطة محراث يحجره
خروفان . ومع انهم زعموا في عهد البراهمة بأنهم يستطيعون ان يشدوا الى المحراث ٢٤ ثوراً
فان هذه الآلة لم تتطور كثيراً خلال القرون اللاحقة ، اذ تثبت رسوم هذا المحراث التي ترتقي
الى القرن الثاني ق. م . (وهي أقدم زميلاتها) حالة هذه الآلة البدائية . ومنذ أقدم العصور
اعتنوا بري المزروعات . وكانت أعمال حفر قنوات الري وصيانتها أعمالاً مشتركة . وفي وقت
لاحق أضيفت خزانات المياه الى هذه القنوات . وابتداء من عهد البراهمة ، وكان قد توغل
الآريون في مناطق بلاد الوسط الأكثر خصباً ، عرفوا مبدأ تسميد الاراضي واستثمار السلمي
والانتفاع من الرياح الموسمية الخيرة .

وشملت المزروعات في أول الامر الشعير (?) (يافا Yava) ، لتمتد فيما بعد الى الارز
والقطن الذي غدا منذ ذلك اليوم أساس أعمال النسيج . ثم تطورت المزروعات وتزايدت فشملت
الحنطة ، والحمص ، والسمسم ، وقصب السكر ، وأنواعاً عدة من الحصار والزهور والتار . ولا
نعرف شيئاً أكيداً عن مزروعات الاشجار المثمرة ، ولكن نجد ذكر صنفين للتين وهما تين لن

Ficus religiosa Linn وتين روكسب Ficus indica Roxb .

وتتألف مواد التغذية والحالة هذه من حبوب قد تحول الى طحين ، وحليب ، وسمين ، وعسل ، وخضار ، وثمار ، وحتى عهد البراهمة ، ولحوم (تيس وضأن وثور وحصان) ، اذ لم يحرم اللحم الحيواني الا حين أصدر البراهمة قانوناً صارماً بهذا الخصوص . وهناك نوعان من المشروبات المسكرة : السوما soma ويستخرجونه من نبات ايراني الاصل لم يحدد بعد ، ويستعملونه عند تقديم الذبائح - والسورا sura يستخرجونه من نباتات عدة يشربه الشعب وان كان شبه محرم .

ولم تنتشر التجارة في أول الامر ، ولكن سرعان ما ازدهرت . وقد سهلتها اقامة طرق للمرات بنوها بصورة مشتركة وبنوا عليها منازل تستعمل كملاجيء للمسافرين في مختلف المراحل . والتنقل كثير الشيوع يقوم به الشحاذون والبراهمة والتجار . وقد ألف هؤلاء نقابات وتجمعوا ضمن قوافل تنتقل على الطرقات والممرات وتصل المدن الرئيسية بعضها ببعض وتنقل من منطقة الى أخرى الاقمشة - القطنية الموصلية والمزركشة والحريية - والطنافس والعقاقير والروائح والحلى والاسلحة والسكاكين . وقد تقوم هذه القوافل برحلات طويلة فتتوطد من ثم العلاقات مع المناطق التي تجاور الهند خصوصاً الاسواق الافغانية والايرانية . وتجري التجارة في المدن في دكاكين صغيرة خشبية تفتح للجمهور او في الاسواق . وكثيراً ما يأتون على ذكر تجار أغنياء مما يثبت ازدهار التجارة . وتوجد أيضاً التجارة النهرية وهي تستعمل قوارب لها من الاهمية ما يوجب استعمال جذافين ومدير دفة .

ويعتمد القانون التجاري على المقايضة ، وقد مثلت وحدة التعامل في البدء البقرة وحليّة (نيكشا Niksha) من الذهب والفضة ، ثم استعملوا للوزن نوعاً من الآلات (كرشنالا Kirshnala) وصفيحة أو قطعة من الذهب (سمانا) تسوى مئة كرشنالا . وعرفوا « المفاصلة » والدين والقرض . وأتوا على ذكر تجار جشعين ومرايين ، كما تكلموا عن الفائدة التي تتراوح بين ١/٦ و ١/٦ . وعقد الاتفاق أمر عادي يحيطونه بنوع من الافعال الطقسية . والدين الذي لا يسدد يعرض صاحبه لعقاب صارم : اذ قد يحكم على من يستدين بالعبودية أو بالعذاب .

وتقوم الصناعة على الصناعات الريفية . والصناعات المذكورة هي قليلة العدد في أول الامر : فالنسج تنسج القطن وشعر الماعز ، وهي تخطط وتطرز وتصنع الفرش ؛ ويصنع النجارون الآلات الزراعية والعربات والحرب ويعدون الاخشاب ؛ ويشغل الحدادون في معادن النحاس والبرونز والحديد ، كما يعد الدباغون الجلود . وتتألف النقابات بطريقة مطردة ويصبح لكل منها اختصاص استناداً الى المواد المستعملة : فالنجارون والنقاشون يستعملون الخشب ، ويذيب الحدادون والصاغة معادن الحديد والنحاس والقصدير والرصاص والفضة (وكميتها نادرة) والذهب (وكمياته كثيرة جداً) ويصنعون منها الاشياء المختلفة ، ويستعمل اخصائيون المعاج لصنع الاقواس والنبال . وتكون الآلات من خشب ونحاس وحديد . ونجد منها أخرى

كثيرة : فهناك العمال لذر الحبوب والفخاريون والصباغون والغسالون والنساجون الخ . ويكثر جداً الملاحون والمنجمون وكهنة الضيع اذ لا غنى عنهم في كل أعمال الحياة ذات الهمية . واكثر العملة احتقاراً هم القناصون والصادون واللحامون وكل الذين توجب عليهم أعمالهم قتل الحيوانات (خصوصاً في الدول الشرقية) . وطبعاً هناك الرعاة والفلاحون ، كما يلجأ القوم الى الحراس والرسل ، ويذكرون طائفة من المهن التي لا يستقر أصحابها والذين يأخذون على عاتقهم التسلية والترفيه عن الغير : كالهراج والبهوان والممثل وناقر الدف والضارب على الزمارة . ويتوارث القوم أغلب الاحيان هذه المهن وقد نجد قري لا يسكنها الا الذين يتعاطون ذات المهنة . ولكن هناك صناع بصورة عابرة يكونون عبيداً ويسمح لهم بالعمل ليستطيعوا تحرير ذاتهم وذلك من ثمرة انتاجهم .

ومن المحتمل أن تكون الحرب أيضاً سبب ربح ، خصوصاً لافراد طبقة الراجانيا ثم الكشتريا الذين يهيمنون على المجتمع الفيدي . ويرافقهم صناعيون وفلاحون سيحل محلهم فيما بعد الجنود المرتزقة . ولكننا لا نملك معلومات تفيدنا عن كيفية اقتسام الغنائم .

٢ - الحياة الاجتماعية

تستند هذه الحياة الريفية والزراعية على المجتمع القروي الذي ينتمي الى ما يدعونه المجتمع بالاسرة الابوية والذي يشمل مع هذا آثاراً من نظام الاسرة المنتسب الى الام . وتستند اهم أفعال هذا المجتمع الى الذبيحة . ومع انه منذ البدء اعتبرت فئتا الكهنة (البراهمة) والمحاربين النبلاء (الراجانيا والكشتريا) الطبقتين الحاكمتين فلا يظهر مع هذا بأنه كانت هناك دقة كبيرة في تقسيم المجتمع منذ أول العهد الفيدي . ولكن حصلت في وقت لاحق تجزئة أوضح وتكوّنت فئتان أخريات ، طبقة « الرجال الاحرار » (الفيشيا) وطبقة العبيد (الشودرا Gaudra) . ومع هذا لم تكن هناك طوائف محددة المعالم تفصل بينها حواجز منيعة كما سيحصل في العهود اللاحقة . ويصدق هذا بصورة خصوصية في الدول الشرقية حيث تغلغلت الروح الآرية بصورة سطحية . وقد كان لهذا العامل ولظهور البوذية الاثر في تخفيف قسوة المبادئ البراهمانية الحقيقية .

وتتصل الفئتان اللتان توجدان على رأس المجتمع - طبقتا رجال الكهنوت والنبلاء - بعري وثيقة وتمتعان بجزية كبيرة . ويستطيع البراهمة والكشتريا ان يتخذوا لهم مهنة الزراعة أو التجارة ، ويهتموا بقطعان المواشي أو بالقوافل ، وينقشوا على الحشب الع ويستطيعون أيضاً ان يتخذوا لهم زوجات ينتمين الى فئات دونهم شرفاً ، حتى ان كن من طبقة العبيد . ولكن لا يتعاطى البراهمة غالباً الا الاعمال الطقسية ، وهذا مما يقوي سيطرتهم لانه يتعذر على أي كان الاستغناء عن خدماتهم اذ ترافق حتماً الذبيحة كل عمل مهم ان كان في مجال الحياة الشخصية أو الرسمية . فالبراهمة « رجال الامور المقدسة » هم الكهنة المستديون ، وهم يديرون الاعمال

الطقسية ويتفاضون نصف الاتعاب بينا يتفاضى النصف الآخر الذين يقومون بالاعمال الطقسسية بصورة عابرة؛ وقد يختص كل منهم بعمل أو بعدة أعمال . وهم يقومون في القرى بدور الطبيب الساحر . ومن بينهم ينتخب كاهن الملك (البروهيت) الذي يصبح له المركز الديني الاول . واذا عينه الملك يصبح مرافق العاهل في جميع تنقلاته لا بل يذهب معه الى الحرب ، ويتلو الصلوات ويتم أعمال الرقى ليضمن للملك النصر أو النجاح في الاعمال . انه ينظم أفعال العبادة ، ويرأس الحفلات الطقسسية ويقبل الهبات . ويمتنع غالباً براهمة القرى مهنة تمت الى بعض الاشكال الطقسسية ، كهنة الحلاق والمنجم والغسال الخ ؛ ونسبة اليهم يوجد نساك وزهاد عديدون أخذوا على عاتقهم بث الدعاوة البوذية في الدول الشرقية منذ بدء انتشار تلك الديانة .

والكشترية هم الحاربون الاشراف ، يتعاطون الادارة والسياسة ويساهمون في المعارك ويكونون عادة طبقة الملاكين العقاريين في البلاد . وينتمي الملك الى هذه الفئة ومنها ينتخب نسبة لحقوفه الارثية والعائلية . وينتخب الشعب العاهل أو أقله يقبل به ، اذ لم يتوج الكهنة الملك الا في زمن لاحق . وتنحصر مهمة الملك الاولى في الدفاع عن أفراد الامة والقيام بأود طغمة من رجال الكهنوت يقفون نفسهم في خدمته وخدمة شعبه ؛ وهو يستثمر أملاكه التي تتألف من غابات و « أماكن صحراوية » لذا يفرض الضرائب بواسطة الآخرين . وبما انه كان رئيس قبيلة أو جماعة أخذ يهيمن وسيطر بصورة مطردة ويعزز سطوته بالذبايح العظيمة كتقدمة الحصان (اشفميدها) وبحفلة تنويج زاهية (راجسوي) ؛ وهكذا توطدت منذ البدء صفة الملك الإلهية .

وتشمل فئة الرجال الاحرار الفلاحين والتجار والصناعيين . وان توصل بعض منهم الى جمع ثروة طائلة فانهم يبقون مع هذا عرضة للضرائب والتسخير اذ هم فلاحون عند الكشترية ، يقدمون لهم الغذاء ويرافقونهم في الحرب . ويكون التجار والصناعيون نقابات يصبح رؤساؤها غالباً أصدقاء النبلاء .

والفئة الاكثر احتقاراً هي فئة العبيد ، وقد شملت في البدء دون شك احفاد السكان الاصليين الذين غلبهم الآريون على أمرهم . ويضاف اليهم الافراد الذين حكم عليهم لعدم تسديدهم ديونهم ، أو أفراد آخرون أبدلت عقوبتهم بالرق ، أو أسرى الحرب أو حتى رجال تخفلوا بملء ارادتهم عن حقوق طبقتهم واعتبروا أنفسهم عبيداً رغبة في التكفير أو قهر النفس . والسودرا هو كائن دنس من طبيعة نفسه يمكن جرحه أو حتى قتله . ولا يحق له دراسة الفيدا أو تقديمه الذبيحة ، ولكن قد يجمع ثروة من عمله فيسمح له اذ ذاك بتحرير نفسه . ولكن يلبس المرء من خلال هذا النبذ والختنوع الذي قد يؤدي الى الموت ذكرى المعارك المريعة التي خاضتها القبائل الآرية ضد السكان الاصليين في أيام الفتح .

وهكذا مع ليونة هذا النظام الاجتماعي نشهد محاولة صريحة لتقسيم المجتمع حسب الاعمال

والمهن ، هذا التقسيم الذي يستند الى الضرورات التي تفرضها طقوس العبادة ، وهكذا نرى بان مبادئ الحياة الاجتماعية الهندية أصبحت على وشك اكتساب كل الخصائص التي سنشهدا لها في العهد اللاحق .

الدولة يستند هذا المجتمع الى نظام ملكي متكافأ فيه ثلاث سلطات : سلطة الملك ، وسلطة رجال الكهنوت ، وسلطة الشعب . ويخضع الشعب والكهنة للملك ولكن بصورة غير مطلقة . وهناك عدد من الموظفين الكبار يؤخذون من طبقة الكشترية ، لا بل من فئة الغيسيا مراراً : قائد الجيش (سيناني) ، شيخ القرية (غرامني) الذي يصبح كنائب الملك ، أمير الأخور ، المنادي أو الشاعر (السوتا) الذين يكون لهم سلطة قضائية . وللشعب كلمة في الحكم . وهو يجتمع في مكان خصوسي ، تحت أشجار القرية أو في سرادق سقفه من عشب . ويحتوي مجلس الشعب هذا على الشباب والشيب ، أفراد القبائل وسكان القرى . وهو يعين مجلس الشيوخ ولجان تحكيم تتخذ القرارات بإجماع الاصوات .

وتقسم المملكة ادارياً الى غراما (القرية وجماعة مسلحة) ، وفيس (كور أو فخذ قبيلة) ، وجانا (قبيلة أو مجموعة كور) . ولكن هذه المعلومات هي عرضة للتغيير والتبديل ولا نعث في النصوص الا على القليل من الأوصاف التفصيلية بهذا الخصوص .

أما السلطة التنفيذية فهي منوطة بالملك ، وقد يصدر بعض الأحكام مجلس شعبي (سبها) . ولا نجد شيئاً واضحاً للنظام القضائي ، ولا يأتون على ذكر بعض المعادات التي ستسود في وقت لاحق كاهمال الأبوين المسنين ، والتخلي عن البنات ، وجماعات الخليلات اللواتي ينتسبن الى أصل شريف ، ومع هذا فهم يمارسون الدعارة . وتخضع الجرائم للعقوبات التي يفرضها وينفذها الشخص الذي هضمت حقوقه دون أن يستطيع مع هذا الحكم بالموت . ويقدر ثمن دم الانسان بمئة بقرة عندما تحدث جريمة قتل ؛ ولكن في عهد البراهمة تغيرت هذه القوانين تبعاً للطبقات . وهم يعددون لوائح للجرائم دون أن نعرف مع هذا بصورة دقيقة العقاب الذي يتناسب مع كل منها . وفي بعض الأحيان كان يأمر الملك بتعذيب جسدي . وهم يعاقبون على السرقة والخلع واللصوصية والدين . وتكثر سرقة الماشية حتى انه يوجد أشخاص اخصائون للبحث عن الحيوانات المسروقة .

الاسرة ان الاسرة هي أساس المجتمع الفيدي . وتخضع الاسرة لسلطة رب المنزل الذي عليه ان يمارسها دون شراسة . وله الحق بتأنيب أولاده وتقرير زواج بنيه وبنساته . وهم يفضلون ولادة الذكور ويستعدون لها بسلسلة من الطقوس تمت صراحة الى السحر . وعندما يولد الطفل يشعلون له ناراً خصوصية ويقدمون هدايا من السمسم والأرز مدة عشرة أيام ؛ وينفخ فيه الوالد النفس ويخضعونه للحمام ثم يطلقون عليه اسمين : الاسم العادي والاسم السري الذي لن يكشفوه له بعض المرات الا في وقت لاحق عند حفلة الاشراك . وعندما يبلغ الثالثة من عمره

يقص له الحلاق شعر رأسه لأول مرة حسب الشكل الذي يختص بأسرته . وعند تنفيذ هذا الأمر يقيمون حفلة يطمرون فيها الشعر بعد ان يخلطوه بالأعشاب وزبل البقر . وعندما يبلغ الفتى السادسة عشرة من عمره يعمدون نفس الطقوس عند حلاقة لحيته ، وهذه الحلاقة هي رمزية فقط اذ يبقى رجال العهد الفيدي على لحيتهم بكاملها .

وعندما يبلغ الشاب سنًا يختلف باختلاف الطبقات والظروف يعهد به الى مرب . ويقيمون بهذه المناسبة حفلة تكون مقدمة لحفلة الاشرار الدينية ، وعندئذ يدخل الشخص في مرحلة جديدة من الحياة . وعليه ان يسهر ليلتي نارا الاسرة مشتعلة ، ويشحذ قوت معلمه وقوته ، ويفترش الأرض ، ويحافظ على العفة ويطيع طاعة عمياء ويمتنع عن أكل بعض الأطعمة . وتقام حفلات طقسية اثناء حياته الدراسية في بدء ونهاية الفصول . ولم تحدد مدة هذه الدراسة . وعندما تنتهي يستعد الشاب للعودة الى أسرته ، فيستحم ويعتق من نذور الدراسة وي طرح أمتعته في الماء ويلبس ثياباً جديدة ، ويصبح اذ ذاك أهلاً للزواج ويقوم بدوره باعباء ومسؤولية رب المنزل .

ويستند الزواج في العهد الفيدي الى انتخاب متبادل يجريه الزوجان وهناك أسباب جديدة بالاحترام تجذب الزوجين الواحد نحو الآخر . وقد رأينا بأنه يجوز عقد قران شخصين ينتميان الى طائفتين مختلفتين ، ولدينا أمثلة عدة تثبت بأن والدة بعض الشخصيات كانت من طبقة العبيد ، دازي اوسودرا . ومع هذا غدا من المستحب في زمن البراهمة ان ينتخب الزوج زوجه من الطبقة التي ينتمي اليها . وتقع على عاتق الوالدة مسؤولية ايجاد زوج لابنتها ، وهي تقدم لها النصيح في هذا المجال وتشرف على زينتها لتجعل منها فتاة يرغب فيها أكثر وأكثر . وعلى طالب الزواج إذن أن يكسب عطف حماته المستقبلية ، ويتوجب عليه علاوة على ذلك أن يدفع لوالد خطيبته ثمناً كما لو كان يبتاعها الشلكا (ulka) أي مئة بقرة وعربة . ولا نعلم ان كان هذا الأمر أصبح عادة أو غدا فقط شبه عقد . وكثيراً ما يشاهد الخطيب خطيبته دون أي قيد . وترتدي الفتاة ثياباً جميلة لترق أكثر في عين من سيصبح لها زوجاً ، وهي لا تنام ملء عينها ليلاً بانتظار مجيئه ولا يفترقان الا عند الفجر . ويعتبرون هذه الاجراءات كطقس يسبق الزواج . واستناداً الى هذه المعلومات فلا يجري الزواج الا بين شابين بلغا أشدهما وهما في ريعان الفتوة ، ولا يذكرون حتى هذا التاريخ - الا حادثة يخيم عليها الشك - زواجاً يجري بين ولدتين ، هذا الأمر الذي سيصبح عادة فيما بعد .

ويسير جنباً الى جنب نظام الزوجة الواحدة مع مبدأ تعدد الزوجات الذي لا ينفذ على كل حال الا لدى الطبقات الحاكمة . ولا يذكرون نظام تعدد الأزواج ، ولكن من المحتمل ان يكون قد عمل به في وقت سابق لهذا التاريخ اذ يجدون ذكره في بعض القصص الخرافية الإلهية . ويظهر بأنهم قبلوا في زمن متوغل في القدم بمبدأ نكاح الوالد لابنته أو الأخ لأخته ، ولكنه حرم في العهد الفيدي ، كما حرمت هذه العقيدة الزواج بين ذوي القربى في الدرجة الثالثة والرابعة .

ويسبب الزواج سلسلة من الحفلات الطقسية . ويحدد تاريخ النكاح بكل دقة استناداً الى ارشادات المنجم . وعندئذ يرسل الخطيب رسلاً الى حميه المتيد . ويمتدح هؤلاء الخطيب واسرته ويتممون العقد . ويقودون بعد ذلك الخطيب الى بيت الفتاة وسط جمهور من النساء حيث يستقبلونه بمظاهر الحفاوة والتكريم كما يستقبلون زائراً مرموقاً . ويقابل الخطيب خطيبته ، ويقدم لها بعض الهدايا التقليدية (الثياب والمرآة) . وبعد ان تقدم الفتاة قرباناً من الحبوب المحسنة يرافقها الخطيب في جولة تستغرق سبع خطوات وهو ممسك بيدها وقد عقدت معها ثيابهما . وهذا ما يكرّس تملك الخطيب لخطيبته . ويرمز العمل الذي سنأتي على وصفه الى تخلي الفتاة عن اسرتها . فهي توضع في عربة أو تعلقو جواداً أو فيلاً ويقودونها بموكب نحو بيتها الجديد ، ترافقها نار طقسية تصبح نار اسرتها . وهي تدخل المنزل دون ان تمس عتبته ، ثم تجلس وتضع على ركبتيها ابن امرأة لم تلد الا ذكوراً أحياء . وفي الثلاثة أيام التي تلي يحافظ الزوجان على العفة بكل حرص . ولا تبتدىء فعلاً حياتهما المشتركة الا في اليوم الرابع بعد ان يقوما ببعض التقادم التكفيرية .

ان الزوج هو السيد مبدئياً ولكن للمرأة مع هذا دورها الهام . وتشير كل الكلمات الفيدية التي تدل عليها الى انوثتها وقدرتها على انجاب البنين وعاطفتها الالدية . والزواج هو النهاية الطبيعية لحالتها ويصبح البيت الزوجي مستقرها اذ يستحيل على الزوج القيام بالطقوس العائلية والبيتية ان لم تكن الى جانبه . وان كان دور المرأة في هذا المجال سلبياً فهي تصبح مع هذا الكاهنة في بعض الحفلات الزراعية ان لم يكن لها زوج .

ولا تتوافق المعلومات التي لدينا عن شأن المرأة في العهد الفيدي . ولا يظهر مع هذا بأنهم أساءوا معاملة البنات . فمن قبل زواجهن يساعدن الوالدة في القيام بأعباء المنزل ، ويحلبن الماء من الآبار بواسطة جرار يحملنها على رؤوسهن ، وينسجن الثياب ويطرزنها . والزواج هو سدرة الأمل عندهن ، وان لم يتزوجن يبقين عند والدهن ويعتنين بشؤونهن . والأخ هو حامي شقيقته ، ويتحدثون بسخرية أو بحسرة عن « الابنة التي لا شقيق لها » . فالابن هو الذي يرث الوالد ويمارس سلطاته . ومع هذا نجد بعض النصوص التي تشير الى عوانس عرفن اليتيم وورثن الأملاك الالدية وقد فضلن القانون على الأولاد المتبنين أو غير الشرعيين . ولا تعرف معرفة بينة اشكال الملكية . ويظهر بأن ثروة الأسرة استندت على ملكية الأراضي التي كانت تخص كما يبدو الوالد . وقد تكون أيضاً مشتركة تضاف اليها الممتلكات الخصوصية التي تشمل المواشي والأسلحة والحلى . وقد تتقفت بعض النساء ثقافة عالية جداً ، وتحتفظ كتب الادب القديم بأثار تقليدية تدل على مركزهن الثقافي . ونجد نساء بين النساك (ريشي) لا بل بين علماء اللاهوت في عهد الاوبنيشاد

وقد تحيا الفتيات حياة لهو واستخفاف ويثرن الشكوك بشبابهن الحمر . ويراقب الوالد والأخ سلوكهن ، ولكن كانت الدعارة كما يبدو أمراً كثيراً الوقوع .

ويبيعون زواج الأرملة ان لم يكن لها ورثة ذكور من زوجها الاول ولكن فقط (?) مع شقيق زوجها المتوفى بغية تأمين استمرار النسل . ولكن يظهر بأنه في وقت لاحق استطاع قريب المتوفى أو تلميذه أو حتى عبده ان يحل محله لينجب أولاداً للأسرة التي غدت تمثلها الأرملة . ومن المحتمل بأن الأرملة ، مثل عهد الريغندا ، كانت تحرق مع زوجها ، اذ يجدون أنراً لهذا الامر في المستندات الطقسية . وقد ألغيت هذه العادة أيام الهند الفيدية ولكنها أعيدت ثانية في العصر البراهماني .

وتحدد طقوس منزلية حياة الأسرة بجميع مظاهرها . وبحور هذه الطقوس هو النار (Agni) التي تشعل داخل البيت وسط إطار من الحطب أو خارج المنزل ، وتعد السيدة الحقيقية (جارهيتيا) وبقرها تقدم القرابين اذ هي السبيل الى كل شيء ، وتمت هذه القرابين غالباً الى أصل نباتي وليس حيواني ، كسمن يذوبونه ثم يصفونه . والطقوس هي في غاية البساطة يقوم بها رب الأسرة ، وقد تؤديها الزوجة أو يتممها مراراً أحد البراهمة . ويقام عدد كبير من هذه التقادم والقرابين في اماكن عدة من المنزل وفي مناسبات مختلفة (على العتبة ، امام مقدمة السرير أو الجهة المناقضة) .

وهناك مناسبات عدة تعد ظروفاً تستوجب القيام بأفعال العبادة أو اعمال طقسية منها اوجه الحياة الزراعية ، وعودة الفصول ، وابعاد الحيات السامة ، واستقبال الضيوف ذوي المقام الرفيع ، وبناء منزل ... وللأعياد الزراعية أهمية خاصة اذ عليها يتوقف ازدهار الزراعة والماشية . وهي تظهر اكثر من سواها تدخل الحياة الدينية المتواصل في حياة القرويين اليومية .

ولكن يوحد طقوس أكثر أهمية وعظمة تأخذ فيها الذبيحة كامل معناها ويظهر فيها مقدمها بدوره الإلهي الحقيقي ، أي الوسيط بين الانسان والإله ، وثبتت الذبيحة من ثم بأنها صلة الرمدل بين الامور المقدسة والعادية . وتستوجب هذه الطقوس الحافلة وجود الكهنة واستعمال عدة ذيران . وهناك انواع مختلفة منها ما يقام بمناسبة ظهور الهلال وبدء السنة الجديدة وجني الواكير الزراعية . ويبدو بأن بعضاً منها يعني افتداء حياة رجل بتقديم تيس . واهم هذه الطقوس هي تلك التي تستعمل السوما والتي تدوم مراراً اياماً عدة ، ومن أشهرها الفاجبيا ولا تعرف العناية منها ولكنها تحتوي على امور غريبة كسباق العربات الذي قد يرمز الى الشمس ، والراجسويا او التتويج الملكي . وهذه حفلة اقل قدماً من غيرها — حيث يعتمد الكهنة ويمثلو الشعب الملك ويمجلسونه على العرش ، والاسفميدها ، ذبيحة الحصان ، وهي من اكثر الطقوس كلفة ، تثبت قوة الملك المظفر وتهبه السيادة المطلقة وتؤمن ازدهار المملكة . وتشير بعض هذه الطقوس — الاسفميدها والراجسويا خصوصاً وبناء هيكل النار — الى تقادم بشرية ، ولكن يظلم . بأن هذه العادة غدت امراً رمزياً منذ تأليف اقدم النصوص .

ووسائل التسلية شديدة التنوع ، ومن اكثرها اعتباراً لعبة الزهر التي يفضلون اسناد

محاولاتهم فيها على الرقم ٤ . ويستهوون كثيراً سباق العربات التي تجرها الاحصنة ، هذا السباق الذي لا يدخل دوماً ضمن نطاق الطقوس الدينية . وتشمل حفلات الفرح رقصاً يؤديه الرجال او النساء على انغام الغناء والموسيقى . ومن آلات موسيقى ذلك العهد الدف والعود والمزمار . وابتداء من عهد البراهمة يأتون اكثر فأكثر على ذكر المهرجين والممثلين والبهالين وناقري الدف وعازفي المزمار .

وعند انتهاء الحياة تأتي طقوس الجنائز . فهم يقومون باللباس وتزيين الميت ثم يأتون به في موكب الى حيث ستحرق جثته ، اما محمولاً على الاكف او على عربة يشدون اليها غصن شجرة يمر على الارض ليمحو آثار ارجل الاقرباء الذين يكونون قد تقدموا الجثة . وعندما يصلون الى المكان المعين يحرقون للميت ، ولآخر مرة ، اعمال التزيين والتنظيف ثم يضعونه فوق كومة من الحطب . وتجلس امرأته بالقرب منه ثم يدعونها للنزول (وهي ستحرق حقاً معه في الازمنة اللاحقة) وقبول شقيق زوجها المتوفى بعلها . ويضعون بجانب الجثة اشارات الفئة التي ينتمي اليها: قوس مكسور لأحد أفراد الكشتريا، وادوات عبادة ان كان من البراهمة . واخيراً يحرقون مع جثة الميت تيساً او يضحون بقرة . ويقومون في فترة الحزن التي تلي الجنائز بسلسلة افعال تطهيرية (استحمام ، صيام ، تزهّد الخ ...) ، ثم يجمعون العظام المحروقة ورماد الجثة ويطمرونها في حفرة يغطونها بالتربة او الحجارة او باقامة بناء للذكرى . وهذا ما يستدعي ايضاً حفلة تتبعها طقوس تطهيرية ، وهم لا يتناسون الاموات ، بل يقدمون لهم تقادم يومية و يقيمون لهم طقوساً احتفالية في بعض المناسبات (ولادة ، زواج الخ) . رتقلب طقوس الدفن هذه رأساً على عقب اشارات الطقوس العادية وتأخذ اللون الاسود لوناً اساسياً .

وهذا الوصف الموجز لحياة الاسرة والمجتمع يشير اشارات عدة الى قوانين وعادات يشترك فيها الهنـدو - اوروبيون في مناطق شاسعة جداً . وهناك خصائص تنتسب الى ايران . وهكذا فان الحضارة الفيدية هي جزء من كل يصلها بحضارتنا ، ولكنها مع هذا تبدو منذ ذاك الوقت مختلفة جداً . ونلمس من خلال النصوص التي عرفتنا بمبادئها الأساسية كثرة في الطقوس السحرية وتقدمة الذبائح . وتكوّن هذه الطقوس لحمـة الحياة القروية او الرسمية وسداها ، وهي تهيمن عليها وتسيرها اكثر فأكثر نحو شكل محدود وتوجهها نحو قيود وقوانين تزداد مع الأيام دقة وحصرأ .

٣ - المدينة والريف

كانت مدن (يور Yuv) الدازا تتألف من مجموعة منازل تملكها اسرة واحدة ، تتجساور داخل حوش تحيط به الأوتاد . وقد تحمي ايضاً بعض هذه البيوت حفر او كوم من التراب . ولا يبدو بأن الآريين قد غيروا كثيراً في هذه المساكن بل اكتفوا على ابعاد تقدير بتطويرها وذلك

بتوسيعها وزيادة عدد اكبر عليها من البيوت والدكاكين والمباني المعدة لاستعمال الجمهور والجماعات وذلك تبعاً لنمو التجارة واطراد الحضارة .

وتبدو المباني بدائية إن نحن صدقنا المعلومات التي تقدمها لنا النصوص التي تشرح لنا هيئة هذه المساكن (شالا) ودور العادة (غربها ، أغارا) . ويفرض هذا البناء القيام بأعمال تمهيدية عدة كانتخاب الارض استناداً الى نوعية التربة ولونها وطعمها ورائحتها . ويقرر يوم البدء بالأعمال تبعاً لتخمينات المنجم . وبعد ان ينتخبوا الموضع يحددونه على شكل مربع او قائم الزوايا ، ثم يحفرون الارض وينظفونها بكنسة (ادوها) ثم يقسمونها بصورة تسمح للياه ان تجري بموجبها بصورة طبيعية الى شمال غرفة النوم ، لذا يعدون بعض الحفر توصلاً لهذه الغاية . وأخيراً يحسبون الحساب لمطبخ في القسم الشمالي - الشرقي وردمة اجتماعات حيث يجتمع رب الاسرة مع ذويه او يستقبل الضيوف .

عندئذ يتبدى البناء . ولا يدخلون فيه آجرأً او حجراً ، أقله في الاعمال العظيمة . ويحفرون في أول الأمر تسعة ثقب (غرتا) يبلغ عمقها حتى الركبة يركزون فيها تسعة أعمدة (ستمها او ستهونا) من خشب الادمبرا . وتوضع ثمانية من هذه العمود ابتداء من الواجهة التي تشرف على الشرق وتتتابع من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية . ويحمل العمود التاسع اسم «العمود الملكي» (سثوناراجا) ، ويقام آخر ما يكون في وسط (؟) المنزل . ويختلف عدد الأبواب كما تختلف وجهتها ، ولكن لا يجوز قط ان يكون المدخل من الجهة الغربية ، كما يمنع منعاً باتاً ايضاً فتح بابين على نفس النمط حتى لا يستطيع المرء اجتياز البيت بنظره ، ، واخيراً يعدون العتسة ويجعلون للأبواب دقوفاً ومصاريع . وتتكون الأجزاء المرتفعة من عوارض خيزران (فشا) . وتشد هذه العوارض بجبل الى أوتاد الأساسات ويوجهونها من الغرب الى الشرق في دور العبادة ، ومن الجنوب الى الشمال في المساكن الأخرى . وهناك حواجز (كدي) تفصل بين الغرف وقد تستعمل كجدران . ويستند قسمها الأعلى الى العوارض . ويحمل هذا الكل سقفاً من القش ينتهي على شكل ياقة (ستوبا) .

وفرش المنزل في غاية البساطة كما هو البيت . وهو يتألف خاصة من مقاعد تكون أحقرها مساند من عشب . اما مقاعد العبادة فهي من الخيزران . ويظهر بأنهم ركزوا فيها قطعاً من الخشب او شدوا اليها قديداً من الجلد . وقد يطلون أحسنها بالذهب ، ويصنعون بعض المقاعد ، إن كانت للآلهة او للملوك ، من الخشب وقد يحفرون عليها الرسوم . ولكن لا نجد في هذا العهد التنوع الذي سيفوفونه لنا بصورة دقيقة في الأزمنة اللاحقة .

وبالقرب من المسكن يعدون مستودعاً للماء يسندونه الى اربعة حجارة . ويسكنون القطيع (البقر والثيران والعجول والاحصنة) في البيت او في اصطبلات مجاورة ويعودون به الى ذلك المكان كل مساء مع الاولاد . وهناك يسكن الخدم ايضاً .

ولدور العبادة هندسة شبيهة جداً بالهندسة التي وصفت أعلاه، ولكن هناك بعض الاختلافات مع هذا. وتعد هذه الدور لإيواء من يقوم بالطقوس وزوجته والجماعة التي يحتاج إليها، والحيوانات والأدوات الضرورية للعبادة. ويعدون في هذه الامكنة ردهة (سالا) للحضور، وأثماًراً لإعداد الأطعمة الطقسية التي يكون أساسها اللبن، وغرفة لزوجة القائم بالطقوس، وحجرات للاستحمام الديني تسورها حصر، وغرفاً صغيرة للتقادم، وجناحاً مخصصاً لطقوس الاموات، وحجرتين صغيرتين مريعتين تتصلان معاً تصبح احدهما مسكناً لمن يقدم العبادة والثانية موضعاً للنضح، ثم رواقاً مخصصاً للعربات تحيط به حصر تمتد من عمود الى عمود؛ ومقابل هذا الرواق يبنون «المركز» (سادس) وهو قائم الزوايا تعلوه ثلاثة سقوف متتالية.

واحدى الحفلات الاساسية التي تحتم اقامة مثل هذا البناء الديني هي ذبيحة الحصان (اشفميدها) التي أتينا على ذكرها والتي يرتقي اصلها كما يظهر الى زمن اقامة الآريين في ايران، وقد يكون أيضاً أكثر قدماً. ولمراسيم تقديمة الحصان ابهة خاصة اذ لا يستطيع ان يقوم بها الا الملك، او احد افراد الكشتريا الذي تقبل البركة الملكية، او «سيد الارض». والبناء قسماً عظيماً. فالجزء الخارجي قائم الزوايا ويحتوي على غرفة لمقدم الطقوس، وحجرة استحمام له، وحجرة اخرى لزوجه، وهيكل النار للسيد، وموضع تسند اليه الجرة الطقسية (أكها). وتحيط الاوتاد بالقسم الثاني الذي يحتوي على الهيكل (اغني - كشتر). وعلى طول جهة السور الكبير الشرقية ارتفعت احدى وعشرون ركيزة شدت اليها الحيوانات التي أعدت للتقدمة والتي انتخبوها من الماعز او البقر. وهيكل النار، كما الحال في سائر امكنة الذبائح، هو من الاجر ويسبب بناؤه - وغالباً على شكل عصفور - الى اقامة طقوس دقيقة جداً ابتداء من جمع الخرف حتى وضع النار باحتفال مهيب. ولهذا الهيكل خمس ركائز من الآجر (١٨٠٠٠ قطعة!) وقد علق على احد جدرانها رسم من ذهب يمثل رجلاً، وهذه ذكرى للذبايح البشرية القديمة.

وارتدى السكان في اول الامر جلوداً وثياباً من صوف، نسجوها من شعر الماعز. وسرعان ما اضافوا الى هذه الاقمشة ثياباً من حرير وكتان وقطن وقنب وقد صبغت باللونين الاصفر والاحمر. ويتزينون بحلى يضعونها في جيدهم واذنهم وكاحلهم، ويدهنون شعرهم بالزيت ويستعملون المشط. وتجدل النساء شعرهن اما الرجال فيحبكون شعرهم بأشكال مختلفة وهم يدعون لحام تنمو مع انهم عرفوا الموسيقى وكان من المتداول جداً قصصها او تخفيفها.

يعرف المرء مما تقدم الى اي حد تغلغلت الديانة في حياة الفرد والمجتمع الفيديين. الديانة وللقيام بأعمال العبادة على المرء ان يتقيد بقواعد وتقاليد في غاية الدقة - عدا العادات السحرية الكثيرة العدد. انها ديانة معقدة تعقيداً علمياً لا نجد فيها الا آثاراً طفيفة من عبادات «اولية» كالطوطمية او المبداء النباقي او الفتيشية. انها حلوية واسعة تخضع فيها الالوهية

لارادة الانسان الذي يؤثر عليها بأعمال الذبيحة او التقوى . وهي تستند على ميثولوجية تكثر جداً آلهة زونها . ان زعيم الآلهة هو اندرا الذي قد يكون في البدء حارس احدى القبائل المنتصرة . ويرمز الى طبيعته المحاربة والمظفرة الثور الذي يمثله . ويضيفون اليه صفة شارب السوما وهذا ما يشده بعري وثيقة الى الذبيحة .

والفجر هو الربة الميثولوجية ، تمثلها بقرات ترتدي ثوباً وهاجاً والجلد (دياوس) والارض (برتوي) هما زوجان . وبقربهما نجد الآلهة الشمسية : سوريا وبوشان وفشنو وميترا وفرونا ، وهي آلهة قديمة العهد جداً تتصل اسمائها وخصائصها بآلهة الزون الايراني كما ورد في الافسته . وثبتت هذه الحقيقة بنوع ادق فيما يختص بميترا وفرونا . ويعتبر هذا الاخير حارس النظام ، وإله الكون وينبوع كل حياة وخير . وهناك بصورة ثانوية آلهة الزوبعة ، رودرا وشيفا ، وقد تبيل شخصيتاهما نحو الاتحاد فيحتلان اذ ذاك المنزل الاولى وتظهر شخصية سيفاً بأشكال متعددة : وتزيد آلهة الرياح ، فايو وفاتا والماروت ، وآلهة المياه والانهار - التي ترمز اليها الحية بعض المرار - هذه المجموعة الربانية التي يجب ان تدخل فيها ايضاً الشخصيات التي تمثل الاغني والسوما . ويطلقون على هذا الاخير لقب برجاباتي ، سيد المخلوقات الذي سيصبح بعد قليل وحدة خلاقة وحامية جميع الخلائق الحية لا بل العالم بأسره . وهناك اخيراً جوع من الارواح الهوائية التي تكمل زون هذا العهد الاول : الربهو ، والاسورا ، والغندهرفا ، والابساسا ، والركسهاسا وكلها بقايا معتقدات شعبية تعادي الذبائح معادة شيطانية . ولا تزال هذه الارواح ترافق حتى يومنا هذا الآلهة الكبار وتمتزج في كل الاساطير الهندية . ومنذ البدء ظهرت بمظهر الانسان ، وان هم ألصقوا بها مظاهر حيوانية ، يبقى سلوكها مع هذا شبيهاً بسلوك الانسان .

وقد ينتمي هؤلاء الاشخاص الى اساس من المعتقدات الهندو - اوروبية كما تعود اليه الاساطير التي يلعبون دوراً فيها . ولكن مقارنة هذه الامور مع المعتقدات الايرانية هي اشد ثبوتاً ، وهكذا نستطيع ان نقارب اسماء اهورا وميترا وفايو وفريثرغنا الايرانية مع اسماء اسورا وميترا وفايو وفريثرهان الهندية . ويوافق ايضاً نبات هاوما السوما ونجد في كل من الديانتين عدداً من الافعال والتقاليد (عبادة النار ، تقديم الحصان النخ) . وهكذا فبنسبة ما تتصل ايران بالوحدة الاوروبية وتمت الهند بايران يتأكد لنا بكل وضوح بأن الهند هي العضو الذي يقع في اقصى شرق المجموعة الاوراسية الشاسعة .

وتجاه هذه المعطيات الدينية التي تحتل المركز الرئيسي فقد قل جداً اهتمامهم بالمسائل الكونية ومصير الانسان . واعتبرت الفيدية مسألة الخلق امراً لا يرقى اليه الشك ولكنها لم تسع مع هذا لاختراق مراحل ، بل نظرت اليه كأنه عمل محترف او نتيجة مسألة تقنية ، او صنع فيسفاكرمان ، مهندس الكون . وتختلف كثيراً المعلومات التي تمت اليه وقد ينسبونه ايضاً الى ذبيحة بوروشا ، الكائن الكوني والاولي .

اما مسألة جوهر النفس فهي مذكورة في اقدم النصوص بصورة بدائية ولن يتسع مداها الا منذ عهد الاوبنيدشاد . انها مرتبطة بمشكلة الموت . ويقول الجميع بالحياة الاخرى كأمر طبيعي اذ تفتح امام الاموات ثلاث طرق : انهم يتحدثون بالمياه والنباتات ، او يحيون بهدوء في مملكة يسيطر عليها ياما ، وهو اول من مات ، او اخيراً يعيشون في عالم واحد ولكن كل على حدة . ويظهر بان مسألة انتقال الانفس (سمسارا) الذي هو ضرب من التقمص لم تكن قد اصبحت عقيدة بعد ، اذ ان النظريات التي ستحظى بالكثير من الاهمية منذ القرن السادس ق.م . لم تكن بعد الا في مهدها . ونتيجة الذبيحة الفاعلة هي اهم بكثير في نظر هؤلاء الريفين الذين يأملون بواسطتها ازدهار مزارعهم وهبوط الامطار المحسنة وتأمين حراسة مواشهم ومختلف دلائل نجاح حياتهم الزراعية والصناعية . انهم يهتمون برفاحية الاحياء اكثر بكثير من اهتمامهم بصير الاموات . ومع هذا يلمس المرء ايمانهم بمبدأ مكافأة الاعمال في عالم غير عالم الاحياء هذا : فالسما هي عالم الاعمال الصالحة ، والجحيم هو مستقر الاعداء والكفرة . وتجري الدينونة بواسطة ميزان او امتحان النار وتحقق بآلام وعذابات جسدية . ويدعون الموتى « الآباء » (بيتري) وهم يساؤونهم بالآلهة الصغرى ان هم احرقوا ودفنوا وفقاً للطقوس . وقد رأينا اعلاه بأنهم يقدمون لهم عبادة ضمن الاسرة لا بل وبعض الطقوس الاحتفالية ايضاً .

ومع الافعال الدينية نجد تقاليد سحرية تم انتقالها من الخلف الى السلف بصورة شفوية وسرية قبل ان تحرر نصوصها بزمان طويل ، هذا التدوين الذي لا يرتقي إلا الى نحو ٦٠٠ او ٥٠٠ سنة ق.م . وتعنى هذه التقاليد السحرية بجميع اعمال الحياة الهامة كتشديد المنزل ، وانتخاب الروحة ، وتوطيد الحب الزوجي ، وصيانة القطعان وتكثيرها ، والريخ في الالعاب ، والنجاح في التجارة ، والنصر في الحرب الخ ... وهي تستعمل خاصة العبارات المنمنمة (منترا) ، والتحويل الى بعض الاشياء والحيوانات ، واخيراً تعاوين وطلاسم تؤمن حياة طويلة ، وتشفى من الامراض او تقاومها ، وتبعد المؤثرات الشريرة ، وتأني على الهوم والهاجس ، وتجلب محبة الشخص الحبيب الخ ... وكثيراً ما يلجأون الى العرافة وهم يستنجدون لذلك بالاحلام ، واشارات النجوم ، والدلائل التي يلاحظونها عند تقديم الذبيحة (اتجاه دخان النار ، حركات الحيوان) الخ ... ويدخلون في السحر بعض الضروب التشفية كمرابعة التنفس ، والتسبب في العرق ...

وفي عهد يحدونه تقريباً حوالي أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق.م . ظهرت عقلية جديدة او بالاحرى استلبت فكرة كانت قد تطورت تطوراً جيداً . وتحتل الذبائح والتقادام المركز الرئيسي وترافق كل عمل مهم من حياة الفرد او المجتمع . فهي التي تحفظ النظام العام وتصبح الواجب الاول لكل انسان ، إذ تعد كدين يجب فرض تأديته نحو الآلهة . وهي التي تضيء على الكاهن سيطرة كلية . وللاحتفاظ بهذه السيادة يستغل البراهمة بعض الوسائل لإبعاد هجمات الشعب المحتملة والتي تساعد على حصر الامور المقدسة بيدهم : فهم يلجأون الى العبادات التشفية ، وينسجون حول معارفهم جواً سرياً ، ويتخذون احتياطات دقيقة لإعلان

إيماءات الآلهة ، وييقون عدداً على الغموض في بعض الدروس التي يلقونها ، ويفرضون على تلامذتهم عدم البوح بالأسرار . ومع هذا فانهم يقاومون التعاليم الجافة التي تتعلق بالذبايح والتفادم ويتشبثون لأول مرة بالمبادئ الميتافيزيقية (الماورائية) ومع احتفاظهم بالزون الفيدي فانهم أوضحوا فكرة الكائن الواحد ، وحدوده بقولهم هو الحقيقة الوحيدة في العالم وهو إله كلي القدرة يشمل سلطانه الكون بأسره . ويحمل هذا الكائن اسم براهمان (اسم نكرة) ، وتمت النفس الفردية (أتمان) الى الجوهر نفسه . وفي « الدروس السرية » او الاوبنيشاد تظهر هذه الوحدة الجوهرية بين النفس العامة او براهمان والنفس الفردية او أتمان : « وانت أيضاً تكون هو » تقول الاوبنيشاد المؤمن بحقيقة والحالة هذه سبقاً عظيماً في التطور الفلسفي . وتحدد هذه النظرية المسندة الى وحدة العالم المجسمة في وحدة الفرد المبادئ المنطقية الميتافيزيقية (الماورائية) وتتطلب من ثم حلولاً لختلف المشاكل المطروحة ، لأنه إن كانت هذه الوحدة حقيقية فكيف نفس وضع الانسان وويلاته ؟ وتنسب الاوبنيشاد المصائب الى الفعل (كرم) . فضرورة القيام بالأعمال تولد الكنه الجسدي ، الذي بدوره ينتج العمل . وهكذا نجد حلقة تسعى الائتمان عبثاً للتخلص منها لتعود الى حالتها الحقيقية اي لتذيب نفسها في البراهمان . ولأول مرة يظهر سياق المبادئ هذه التي لا يبحثون لها عن سبب آخر وتصبح من ثم نظاماً : انه انتقال الارواح او التقمص (سمساره) الذي لن يعرف نهاية إلا بالتلاشي في الكل الإلهي (براهمان) . ولكن العودة الى البراهمان لن تتم إلا بعد عدد من الولادات المتعاقبة . وكل مرة تظهر على الجسم دلائل الموت تولد حالاً الائتمان مرة ثانية او تبقى منتظرة في العالم القمري الى ان تتلاشى كلياً فاعليتها فتستطيع إذ ذاك الاتحاد حوهرياً في البراهمان . ويعتبرون هذا الامر الخلاص النهائي (موكشا) . وهكذا وضعت المبادئ التي ستبقى الى يومنا هذا شغل الفلسفة الهندية الشاغل . ونتائج هذا النظام بالغة الاهمية : إذ بعد تقرير مبدأ تجزئة المجتمع الى طبقات يغدو منطقياً ان لا تنسب قوة الخلاص نفسها الى هؤلاء واولئك . وكيف نفسر هذا الفارق إلا اذا اعتبرنا بأن المقدرة على العمل قد ضعفت بدرجة مختلفة تقل أو تكثر : وان ولد شخص في طبقة البراهمة او فئة الكشترية فذلك يعني بأن اتمانه قد أتمت عدداً من الولادات التي ضعفت من قوة الكرمين وهذا يعني أيضاً بأنه يقترب من الخلاص النهائي . وهكذا تسعى براهمانية هذا العهد لتحديد معطيات مشكلة التقمص ، وتجعلها تتلاقى مع حالة اجتماعية مستقرة بدل ان تجدد لها الحلول . ونتيجة لهذا التعليم يعترفون بأنه كلما هوى المرء في سلم الطبقات الاجتماعية وغدا من ثم أشد ابتذالاً واحتقاراً كلما صعب ان يتلاشى الكرمين الذي يكبله في سلسلة الولادات المتعاقبة . وإن أتينا على ذكر حالة بعض الافراد الياسة عرفنا بصورة افضل مدى الاصلاح الذي اقترحه بوذا شاكرمين . وقد ورد هذا الاصلاح في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الانتفاضات في العقيدة البراهمانية نفسها . واعتبر شاكرمين ، كما اعتبر معاصروه ، بأن السمساره مشكلة أساسية إذ لا تمت فقط الى مصير الفرد بل أيضاً الى التكوين الاجتماعي بأكليته . وهكذا اخذ بوذا يحل هذه

المشكلة بشعور انساني عميق ومتناه في اللطف وهو يتعارض وقساوة البراهمة التي لا ترحم ، ويعتقد بأن قيمة الفرد لا تستند الى قوة افعاله بل الى مقدرة الشخصيه في مجال الرحمة والمحبة والشفقة . انه لا يهتم كثيراً للزون البراهماني ، وهو يبقيه على حاله للذين يبشرهم ، وهو لا يعنى إلا بالإنسان ويسعى لإيجاد داء له . وهو يشرع بتفكير منطقي يستند الى امور يأنف منها كل كائن ذي احساس : الألم والموت . فالوجود ، كما يقول ، يحمل الألم في طياته ، وينتج الألم عن رغبة لا تتحقق ابداً ، وتتأتى الرغبة عن الجهل الروحي الذي يغمر بالمرء فيجعله يعتقد بأن الظاهر هو الحقيقة . وبالتاليان على هذا الجهل تتلاشى الرغبة وينعدم في الوقت نفسه الألم . ولا أهمية للسوت ان لم تنتج عنه ولادة ثانية تعيد النظام الاولي الذي نجبر من جديد ان نأتي عليه حلقة حلقة . وللوصول الى الغاية القصوى ، « الزرقانا » ، الذي ينتهي بها كل شيء ، يجب ان تتبع طريقاً فيه التوازن الكلي الذي لا يقودنا الى التثاقفات المغالى فيها والتي يمارسها بعض النساك ، ولا الى الملاهي الموح التي تعرقل سير الروح ، انه « طريق وسط » يطبقه كل على نفسه ويتطلب من رجال الدين اكثر مما يفرض على العلمانيين ، ولكنه يستند الى محبة الغير وعدم الاكتراث بالذات والشفقة نحو الجميع

وكان مؤسس العقيدة الجاينية معاصراً لهذا العهد الذي أحدث تجديداً في المجال الفلسفي . وقد أتى بمبادئ ، إن قيست بالتعاليم البوذية ، تظهر اقل تناغماً مع الرغبات الشعبية . والحلولية التي تشمل الطبيعة بأمرها هي أساس ديانة مهسافيرا التي تستند اكثر ما يكون على اللاعنف (أهيمسا) ، ومنع إيقاع الضرر بالحياة مهما كانت مراحل تطورها .

وهكذا نرى بأن هذا العهد الذي يرتقي تقريباً الى القرن السادس ق. م. هو في غاية الأهمية لفهم الحضارة الهندية . وفي هذه الفترة بدأ المجتمع يستقر ضمن اشكال ستوسع فيما بعد ويستند عليها التطور اللاحق . وظهرت أسس الفلسفة الهندية نفسها التي ستضفي على الهند اهم خصائصها . واخيراً فان نشوء البوذية مهد طرق السيادة للعهد اللاحق الذي سيغدو فاتحة تطور فني وادبي يكون له صدى صاعق في كل مناطق النفوذ الهندي اعني آسيا بأجمعها تقريباً .

تبعاً لهذا التطور الديني والفلسفي بدأ يتسع مدى المعارف التي لها الصفة العلمية البحتة العارم مستمدة حيويتها من الرياضيات وعلم الفلك . وهكذا اذ كان الشعب يكرم زونا تؤلفه اغلبية من قوى الطبيعة المؤلهة اخذ « العالم » الفيدي يقسم الكون ثلاثة اقسام — ويميلون الى الاعتقاد بأن هذا التقسيم الثلاثي يتوافق مع وجهة نظر ايران الافستية . فالارض اولا ، وهي على شكل قرص الشمس وتستند الى المحيط ، ثم السماء او الجسد حيث تسبح الغيوم وتقيم الالواح وتقطن البروق ، واخيراً السماوات العليا التي تحتوي الشمس والقمر والنجوم والسيارات . وتكون الشمس ، وهي على شكل دولا ب ، القوة الفاعلة الكبرى في هذه المنطقة ، وهي التي تخلق الليل والنهار والشفق والشهر والسنة ، وتسبب هبوب الرياح وتبقي على التوازن بين النجوم

وتضيء وجه القمر . وتدور دورتها على اثنتي عشر مرحلة ، يثلها اثنا عشر حيواناً ؛ ويعبر عن هذا الامر تقسيم السنة الى اثني عشر شهراً او اثنتي عشر شمساً ؛ ويظهر جلياً بأن هذه المعاومات تعكس حقائق أشد قدماً ، اذ كانوا قد تحدثوا عن الاثني عشر شهراً شمسياً فهناك ايضاً ثلاثة عشر شهراً قمرياً . وحددوا ايضاً بدء السنة عند المنقلب الشتوي ، ولكن يحتفلون بهذا الحدث عند ظهور الربيع . وكان لهم في اول الامر ثلاثة فصول ثم غدت خمسة : الشتاء والربيع والصيف والامطار والخريف . وقسموا غالباً فصل الشتاء قسمين وعدوا كفصل سادس الفصل الذي يسبقه مباشرة ومن خصائصه الانداء .

وتعد ملاحظة كسوف الشمس وكسوف القمر متممة لمراقبة المنقربات والاعتدالات . ويعزون هذه العوامل الى اسباب خرافية . وهم يعرفون الكسوف والخسوف الكليين ووجود سبعة وعشرين كوكباً سياراً يضيفون اليها الشمس والقمر . وهم يكتشفون الجهات الاربع الرئيسية بواسطة آلة خصوصية هي الغنومون .

والدور الذي يلعبه عالم الفلك - وقد احتكر النساك هذه الصنعة - هو عظيم جداً اذ يشترك في كل الذبائح الكبرى : فهو الذي يعين الوقت المناسب لتقدمتها ، وهو الذي يحدد انواعها عند تبدل الفصول وعند عودة بدء السنة . وهذه الذبائح هي الاكثر اهمية ، خصوصاً ذبيحة الربيع التي تفرض تقدمتها استحمام المرء وفقاً للطقوس .

وقد عم معطيات علم الفلك مبادئ هندسية وحسابية مع انه من الصعب فرزها عن فيض المبادئ العلمية التي تحيط بها . اتسع كثيراً مدى اسماء الارقام وعرفوا نحو ثلاثين اسماً اساسياً : واقرروا النظام العشري ، معتبرين رقم المئة كالوحدة فيه . ويبدو بأنهم اهتموا جداً لايجاد كيفية يقسمون بموجبها رقم الألف ثلاثة اقسام متساوية . ولكن ازاء هذا النظام الذي يستند الى رقم ١٠ نعرف انظمة أشد قدماً : خصوصاً وحدة الوقت الذي تتخذ لها اساساً الرقم ١٥ والتي تجزى مدة النهار الى $\frac{10}{1}$ (١٠ = برانا) .

وعرفوا علم النبات ومارسوه اذ يمت بعمر وثيقة الى العالم ، ومن الضروري الوقوف عليه لتهيئة الذبائح ، وتركيب الادوية الخ . ويعتبر علم النبات مدمكاً في صرح حب الطبيعة الذي لم تنفض قط الحضارة الهندية يدها منه والتي زادت مدى شروط الحياة الريفية او التقشفية . لذا نرى منذ هذا العهد القديم بأنهم اعاروا اهمية قصوى بتحديد الاسماء النباتية ، الاشجار والاغراس ، وسعوا جهدهم لتصنيف هذه الخلائق . وفي الحالة الاخيرة اخذوا بعين الاعتبار علاقة النبات بالمبادئ الكونية والدينية اكثر من نظرهم الى خصائصه الذاتية .

الفصل الثالث

خصائص الحضارة الصينية القديمة

على نقيض حضارة الهند التي كانت لها علاقات مع الغرب «فان الحضارة الصينية قد تطورت وهي تدير ظهرها الى عالم البحر الابيض المتوسط» (هنري مسباروا) . ولم يكن لها معه الا علاقات غير مباشرة بواسطة الجماعات السيبرية وقد اتجهت عمداً وقصداً نحو المحيط الهادىء، هذا العالم الذي يختلف كلياً عن العالم الذي حقق تطورها الثقافي (التطور الاوروبي) .

وبدل طباع الهند المتعددة والمتقلقة والتي قد يناقض بعضها بعضاً تقدم الصين تلاحماً متيناً يستند بقوة الى وحدة سكان الصين العرقية . وغدا نظامها الاقطاعي ثم الامبراطوري عاملاً وحدة ايضاً في ثقافتها ونظمها اذ فرض بشكل مستديم مجموعة متناسقة من الافكار والتقاليد .

وتهيمن الروح الصينية على هذه النظم والآراء ، وتحب هذه الروح الدقة — حتى عندما لا تستند الا الى أمور خرافية — وتقدرها حق قدرها في المكابيل والموازين والمقاييس وفي التواريخ والارقام ، في المسافات وفي المبادئ العلمية . ويقترّب منطقها من منطق حضارات حوض البحر المتوسط الابيض . فالنظام الصيني هو أساس الحرية ، والسيطرة على الذات — التي توافق معرفة العالم — هي في الحقيقة حكمة وطمأنينة في الحياة . وتعطى هذه الحكمة لمن عرف كيف يهذب نفسه ويتحرر بواسطة أمور تقليدية قديمة : اذ وراء واجهة أدبية وتقليدية تحصل حرية المرء بصورة سرية ولكن كاملة الاستقلال . ولا نجد حياة روحية متقلقة : اذ لا يعترف الصيني للآلهة بأي تفوق . فهي كائنات مجردة ؛ بعيدة قد تثير السخرية ، وذلك لأن الصيني بطبيعته يميل نحو الكفر بكل شيء وذلك بصورة سمجة وضاحكة . وهو يعتقد بأن لعبر الماضي وأمثلة الجدد المتوفين أهمية أكبر بكثير ، اذ للتجارب التي تمت في القرون الغابرة قيمة عظيمة — وهو يبني سلوكه وحياته على هذه السوابق « التاريخية » والجديرة بكل احترام . لذا فهو يعشق جداً كتب حياة الاقدمين وسير أعمالهم التي ، على غرار كتاب «حياة الرجال العظماء» لبلوترك؛ تقوده في الحياة مهما بلغ عمره وجنسه وحاله ودوره في المجتمع ، وهو اذ يحذو حذوهم يكون

(١) يستند هذا الفصل على نطاق واسع الى نظريات مرسيل غرانه .

أكيداً بأنه يبقى جزءاً من كل ينتمي اليه ، اذ الفرد بعرفه لا يعيش وحيداً ، وهو لا ينفصل عن الطبيعة ولا عن المجتمع الانساني ؛ والهدف الذي يصبو اليه هو رفقة حسنة وصداقة — تستندان الى الآداب واللباقات — تؤمنان سلاماً سمحاً يقدو وليد النظام . وتتلخص غايته بأمرين : فهم الغير والوفاق معه . وهكذا يحصل حسن تفاهم الانسان مع أخيه ومع الطبيعة ، هذا التفاهم الذي ينتج النظام الحثيث . ومع هذا لا نجد صلابة ، ولا قوانين دقيقة متحصرة ، ولا موجبات مطلقة : بل أموراً حسية ولكنها غير محددة حتى تأخذ الحياة مجراها « وتلعب لعبتها » من خلال اللباقات والتقاليد .

وتهيمن فكرة « اللعبة » على النشاط الفردي والجماعي . وعليها تستند الطقوس التي تجدد ، دون انقطاع ، مختلف مراحل الحياة الجماعية واطوار التاريخ وتقلبات الزمن . وتتناغم هذه الفكرة مع قواعد علم الطبيعيات الصيني الذي يغدو العالم الانساني صورة طبق الاصل عنه .

ويستند علم الطبيعيات هذا الى مبدأين اساسيين : الوقت والمدى . ويقسم هذان اقساماً مساوية لهما في الجوهر . فالمدى ، اي الارض ، هو محصور ضمن مربع ، ويجزأ اجزاء مربعة الشكل ايضاً : الحقول والمدن وهيكل التراب والمجالس والاملاك الملكية والامبراطورية بأسرها . ويوجهون هذا المربع بشكل يتلاقى معه كل ضلع مع احدى الجهات الرئيسية وأحد الفصول . ولكل ضلع لون معين : فهو اخضر شرقاً (الربيع) واحمر جنوباً (الصيف) وابيض غرباً (الخريف) واسود او اصفر شمالاً (الشتاء) . ويفصل المدى ، الذي عينوا له هذه الحدود وتلك الجهات ، اجزاء اجزاء يصبح وسطها المبدئي من املاك العاهل . وتعرض هذه النظرية بجمل القواعد الاجتماعية وتحفظ تناسق الدولة في مختلف اجرائها : وبموجب طقوس محددة ومناسبة يحتفظ الوسط وحده بقوة المدى كله ، وعلى الاجزاء التي على الجوانب ان تأتي في أوقات معينة -- بواسطة ممثلها -- لتجدد قواها لدن المدى الرسطي . لذا وجب على حكام ورؤساء المقاطعات ان يأتوا كل سنة الى العاصمة يقدمون تقارير عن حكمهم وادارتهم الى الملك او الامبراطور . وحسب تقليد قديم بطوف الامبراطور مره كل خمس سنوات على المقاطعات ، وليوافق بين الرمن والمدى ينبع الامبراطور في عمله هذا نظام سير الشمس (شرقاً فجنوباً فغرباً فشمالاً) ويتوقف في كل جزء حسب احد فصول السنة الذي يختص به .

ويشبه نظام الزمن نظام المدى هذا . وكما يجب تجديد القوى في مجال المدى ، يجب ايضاً الاحتفاظ بحياة الزمن وذلك بتجديده . وتوزع مواعيد هذا التجديد على مدات غير متساوية ، ولكنها تتبع كلها نظاماً لا يتبدل : فقيام ملك جديد يلزم انشاء عهد جديد تعرف نهايته وتوقع عودته ويعى طقسياً نهاية تقويم أتي الزمن عليه وبدء تقويم جديد يدوم ما دامت تلك السلطة قائمة . لذا تحيط الطقوس الملك او الامبراطور سلطة احياء الرمن والمدى لصالح اتحاد المقاطعات والمجتمع الفدرالي . وتشعر هذه المقاطعات وتلك الجماعات بضرورة تجديد دوري لا يستطيع

بدونه أي نظام ان يستمر . فالوقت اذن هو الهدف الطبيعي لكل أمر يريد الاستمرار ، وهذه
رغبة الصينيين القصوى .

لذا لا تغدو العاصمة مركز الامبراطورية المحمي فقط ، بل أيضاً المقام الوحيد للمدى والزمن .
وتصبح مقدسة (حسب بعض التقاليد) ان كان لها « بيت التقويم » (مينغ تانغ) يمثل شكله
بصورة مصغرة العالم : فهو يتألف من قسم أساسي مربع يمثل الارض وسقف من العشب على
شكل نصف دائرة يمثل السماء . ويقم فيه الامبراطور الحفلات لافتتاح الفصول والشهور المتعاقبة .
ولهذا الغرض يدخل تحت القبة السماوية ، ثم يتجه نحو الشرق وهو يرتدي اللون المناسب ليطعم
الطقوس التي تجدد الزمن في وسط المدى نفسه .

ونجد مبدأ الوسط هذا في المدى والزمن أيضاً ، والى هذه العقيدة تستند سلسلة المراتب التي
اكتسبت أهمية كبرى في الصين الامبراطورية . ولكن هناك أيضاً مبدأ التعاقب والتناقض
الذي ينعكس حتى على المعارك الطقسية والرقصات المتناقضة والذي قد يرقى الى تقليد اكثر
قدماً . ويقوم مبدأ التعاقب هذا على أمر قوي يليه أمر ضعيف بصورة تتوافق مع مسافة ملأى
وأخرى فارغة . واذ نظم الصينيون العالم على هذا الشكل ادخلوا في الاجزاء الخمسة كل الطبقات
الاجتماعية مع فضائلها وخصائصها ، والظروف ، والمواقع ، واشكال الفن الخ ، فحققوا والحالة
هذه لكل القوى الفاعلة نظاماً لا شائبة فيه ، وقد اخضعوا هذه القوى الى ترتيب اعتبروه في
غاية الدقة . وكان تلاحم هذا التقسيم المنطقي كافياً لتأمين فعالية كاملة لكل ما حواه .

ويلاقى التوافق الذي يهيمن على المدى والزمن جواباً له في نظرية « ين » و« ينج » الشهيرة اللذين
يحتمان في « الطاو » او العالم . والى هذه النظرية يستند كنه الفلسفة الصينية . وقد فتح تحديد
هاتين الكلمتين المجال واسعاً امام تفسيرات شتى . ويبدو بأن المعلومات التي تشير ان اليها
موجودة في مجموعة المعارف التي تسيطر عليها فكرة التناسق . ولكن لم تظهر الرموز التي
تجسدها - والتي اخذوها كما يبدو من مادة علم الفلك - قبل القرن الثالث ق. م. ومع هذا غدا
لهاتين الكلمتين قبل هذا العهد بقرنين خصائص تناقض بعضها بعضاً ، كما هو ثابت في « شي - كينج »
مثلاً . ولا يجب ان نتقيد في هذا المجال بتحديد مجرد او شديد الدقة يمثل لنا اموراً متناقضة
« ين » اي الشمال والظل والبرد والجنس الانثوي الخ ، و« ينج » الذي يمثل الجنوب ، والامكنة
المشمسة والحرارة والجنس الذكر الخ) ولكن علينا ان نترك ليونة كبرى في هذا المضمار ،
« لعبة » تتناسب مع التفكير الصيني . اذ لا يفرق الصينيون بين « ين » و« ينج » عن الحقائق الاجتماعية
التي توحي هذه الرموز الى ترتيبها (مرسيل غراه) . وقد لا يكون في الامر حقيقتان
تتناقضان بل رمزان متحدان يلخصان في كنهها بقية الرموز ، و « عنوانان اساسيان » يحتويان
على كل شيء آخر . وهذا ما يفرض عليها القوة والسلطة اللتين يتمتعان بها اذ يرمزان وحدهما
الى جموع المتناقضات والى التناسق الذي يكتنف العالم . ولا تجعل منها صفاتها التي تبدو على

طرفي نقيض عددين متنافرين ؛ بل يؤمنان بالعكس اكتمال كلٍّ يختلف اجزأؤه جوهراً وكنها .
ويبدو الين والينغ ، وهما صلة الوصل بين المدى والزمن التي تظهر على شكل (S) كأنها مبادئ
تعاقب الفصول ؛ هذا هو الاساس الجوهري للحياة الاجتماعية بكاملها . ويعود الى الرئيس ان
ينشط تعاقبها ، وينعش قواها العجيبة ، وينظم فاعليتها الثنائية . ويمثل الين والينغ ، وهما
الغريمان المتضامنان ، اختلاف الاجناس واتحادها ، اي اساس النظام الاجتماعي ومن ثم النظام
العام . فهما يعبران في الوقت ذاته عن تضاد وحدتين وعن كل يكونه نصفان . وهما لا يتعارضان
إلا ليتم احدهما الآخر ويكونا وحدة مستقلة .

وهذه الوحدة هي الطاو (الطريق ، الاتجاه) ، مبدأ نظام ذي فعالية عظمى ، وقوة
تنظيمية ؛ ولا تحتكر المدرسة الطاوية هذه النظرية بل هي ملك التفكير العام . وينتظم كل شيء
في هذا المبدأ كما هو جار في المدى والزمن : ويحتوي الين والينغ ، وهما القسمان الكبيران ،
تقسيمات عدة ثانوية لكل منها خمسة اوستة حقائق تتجراً بدورها حسب الجهات الاربع والسمت ،
فيقابل الشرق مثلاً الربيع واللون الاخضر وعنصر الخشب والعلامة الموسيقية الخامسة ، ويقابل
الوسط منتصف الفصول وعنصر التراب والعلامة الموسيقية الاولى الخ . وتجتمع هذه الاجزاء
المتضامنة وتنتظم معاً لتعطي الطاو وحدته . وهكذا يفسر النظام الكوني وكل مظاهر الحياة
مع اسبابها الموجبة . ونجد ايضاً من ثم حلاً لكل وضع وسلوك وتبديل . ويقرر الطاو التفاصيل
كما يحقق المجموع ، فنظفر من ثم بالنظام الذي يهيمن على القوى العقلية الماعلة كما يسيطر على حياة
العالم ، هذا النظام الفعال والشامل الذي يمثل هدف النفسية الصينية الأعظم . والطاو ، وهو
الطريق والسبيل ، على علاقة وارتباط مع الطرق العظيمة الموجهة التي تنتمي الى وسط العاصمة ،
اعني الى بيت التقويم (مينغ تانغ) او الى العامود الذي يصبوه على مفترق الطرق الرئيسية ،
حيث — عند الظهر — لا يسمع اي صدى ولا يعطي ظلاً اي جسم وإن انتصب مستقيماً . وهذه
الصورة للوحدة المركزية التي تطفو على كل الخلافات هي ، حسب الخرافات ، صورة العالم حيث
ترقع في وسطه شجرة عجيبة ؛ والامبراطور الذي ينتصب مستقيماً في وسط العالم هو المحور
ويسيطر على الطريق (الطاو) حيث تلتقي السماء والارض . وان وجدنا في هذه النظرية بعض
المبادئ التي لاقيناها في الهند القديمة ، نر بأن الصين توصلت الى السوط النهائي على مراحل مخلفة
وبفضل قياس حسي اكثر مما هو منطقي .

وداخل هذا البناء المتناسك أكثر الصيغيات التي تختلف رتبة ومنزلة وذلك
بواسطة جداول وفهارس تحير مقاييس المقاربة فيها الفكر الغربي ولكن تستوجبها فكرة وحدة
العالم الدقيقة وتضامن الأمور الذي يلعب دوره في هذا المجال . وتجد العقلية الصينية مداها
الرحب في هذا المضمار .

ان معظم المعاوومات التي نعثر عليها هنا وهناك والتي تتعلق بهذا الطور القديم
المطان والمستندات تأتينا من النقوش المحفورة على العظام أو فلوس السلاحف أو قطع النحاس ،

أو من نصوص الأدب الكلاسيكي الكونفوشياني . وترتقي أقدم هذه النصوص الى القرنين الحادي عشر والعاشر ق . م . ولكن لا يعود أصدقها من الوجهة التاريخية إلا الى فترة تتراوح ما بين سنة ٧٧٢ و ٤٨١ ق . م . ونجد معها غالباً تعليقات خاصة في القرنين الثالث والثاني ، وعلى أساس هذه المعطيات سينسج بلا ملل فلاسفة وأدباء القرون القادمة دون ان يزدوا إلا القليل القليل من الجديد . وتحوي الكتب المدرسية (كينغ) مجموعة كبرى من المعلومات المختلفة عبروا عنها بأساليب لا تقل عنها اختلافاً : أمور سحرية في « كتاب التغيرات » (بي - كينغ) ، وخطب سياسية وقرارات وتفاصيل عن سير الاعمال الادارية في « كتاب التاريخ » (شو - كينغ) ، واغاني حب وترانيم دينية وقصائد طقسية وانايد للأعياد في « كتاب الشعر » (شي - كينغ) ، وسرد تاريخي في « كتاب الاخبار » (تش ، وان تس ، اياو وحرفياً فصول الربيع والحريف) الخ .

وهذه المستندات ادبية في مجملها ولها مسحة اكااديمية ورسمية . وهي لا تدع المجال الا قليلاً للتفكير بالاساس الشعبي ، وردة فعل الجماهير ، ولا تنقل اليها الا مظهر الحضارة الرسمي ، وكل ما يميز الارستوقراطية الصينية بما فيه مغالاتها في الدقة وتمسكها في المسائل الشكلية وحيائها المصطنع الذي يعتبر اللياقات قوانين وقواعد . فضلاً عن المعلومات التاريخية الدقيقة جداً التي يقدمها لنا « كتاب التاريخ » فإننا نستطيع ان نستخلص فكرة شاملة عن عقائد وتقاليد التشاو . لذا نرى في « كتاب التغيرات » ظهور مبدأي ين وينغ اللذين يكونان العالم او الطاو . وفي « كتاب التاريخ » تأكيد مبدأ الموافقة بين الانسان والعالم بواسطة العناصر والجهات الرئيسية الخ . والطقوس ، اساس الحضارة الصينية ، هي في عهد نموها وتطورها ، ولن نوضع لها نصوص كتابية الا ما بين القرن الرابع والقرن الاول ق . م . في ثلاثة كتب رئيسية هي « طقس التشاو » (تشاوي) ، وي لي ولي كي . وترتقي هذه الكتب الى عهد لاحق بكثير لكونفوشيوس ولكنها تعبر عن تعاليمه .

وتهيمن على عهد التشاو شخصية كونفوشيوس (حقيقية كانت او حرافية) وخلعائه كمشيوس (مونغ تسو) الذي عاش في القسم الثاني من القرن الرابع ق . م . وسيون كوانغ ما بين سنة ٣٠٠ و سنة ٢٣٠ ق . م .) وتتطور الآداب الكونفوشيانية مستندة الى الطقوس وساعية لنشر وتدعيم السلام في المجتمع وفي نفوس الافراد على حد سواء . وبالمقابلة نرى مبادئ الفلسفة الطاوية تعرض في كتب ثلاثة تظهر في القرنين الرابع والثالث ق . م . وهي : كتاب الطاو والطو (لاو - تسو او طاو - طو كينغ) وكتاب تشوانغ تسو ولي تسو . وتدعم هذه الكتب سلسلة من المنشورات العقائدية التي تسعى لاحياء السلطة الحكومية بواسطة قانون جزائي . ويعتق كتاب كثيرون ينتمون الى مختلف العقائد الدينية « مدرسة القوانين » هذه ، التي يمثلها خاصة كونغ - سوان ينغ (ويعرون اليه كتاب تشوانغ تسو) وبين ون تسو وهان في تسو .

وفي الوقت ذاته نجد عدة مجار فكرية اخرى : مدرسة موتي (بن سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٠٠ ق. م.) ويعتقدون بأنه مؤلف كتاب موتسيو ، ومدرسة « الحكاء » المدعوة مدرسة الاسماء ومدرسة السياسيين ، ومدرسة الانتقائيين ... وقد قالت كلها بالاصلاحات ، وبالرجوع الى الماضي السحيق او بالقيام بثورات . وهي تسند كل مبادئها الى السياسة والهموم المادية اكثر بكثير من اسنادها الى عقائد فلسفية بحتة .

وبواسطة هذه المجموعة الادبية ، المرسومة او المنقوشة ، نستطيع ان نعيد بناء صرح الحضارة الصينية . ولا يخلو هذا الامر من الخلل اذ يستعين بمظان ومستندات عقلية وارسوقراطية اكثر مما يجب ؛ لذلك لا نستطيع الاعتماد الا بصورة جزئية جداً الى الاشياء والآثار المادية .

اللغة الصينية لغة ذات مقطع واحد ويعبر عنها باشارات او « حروف » .
وتختلف اللغة المحكية اختلافاً كلياً عن اللغة المكتوبة إذ تخضع كلياً لكيفية النغم في اللفظ . وهي فقيرة جداً من حيث الحروف الصوتية ولكنها على نقیض ذلك دقيقة جداً من حيث استعمال النبرة . وتلاقي في حالتها هذه صعوبات كبيرة للاعراب بصورة واضحة عن الفكرة المجردة . انها لا تليق قط للامور العلمية ولا تصلح لتحليل الافكار بل تجيد الحقائق المعاكسة . وهذا ما يفسر لنا جزئياً بعض تطورات الآداب الصينية التي سهلت هنا وتعثرت هناك . ولكن يستحيل فهم كنه الحضارة الصينية إن جهل المرء تماماً بعض خصائص اللغة الصينية . ويسهل هذا الامر عندما نعرف مثلاً بأن نفس الكلمة « وین » مثلاً ، تدل بالوقت ذاته على الكتابة والرسم والادب والحضارة .

ومع كل هذه الصعوبات بقيت اللغة الصينية لمدة طويلة لغة حضارة زاهية ووسيلة لنشرها في جزء فسيح من آسيا .

لمحة تاريخية
منذ زمن متوغل في القدم — لا نستطيع تقديره بالتدقيق — بدت البلاد الصينية وكأنها قسمان مختلفان : جزء من السهول المزروعة والتي تستثمرها جماعات من الفلاحين ، وقسم من المناطق الغفل حيث يعيش صيادون على شيء كثير من البداوة . وإن نحن قدرنا بأن حكم السلالات الأشد قدماً يرتقي الى ما بين القرنين العشرين والخامس عشر ق. م. استطعنا ان نعزو الى هذه الفترة المصنوعات الخزفية المزينة « بالمشط » التي توافق بعض الموافقة زميلاتها في روسيا الجنوبية او سيبيريا . وحوالي سنة ١٧٠٠ (?) تظهر لنا بعض المصنوعات الخزفية الاكثر تطوراً والتي عثر عليها في هو — نان (ينغ — شاو وكن — ونغ — تشاي) تقدماً حضارياً محسوساً وذلك نسبة لتحسينها التقني ورسمها ، مع ان تلك الحضارة لم تزل في طورها والخرافي السابق للتاريخ . ويعود هذا العهد كما يعتقدون الى حكم سلالة « هيا » . وتعبها سلالة شنغ (ما بين سنة ١٥٤٣ وسنة ١٠٢٨ تقريباً ؟) . وفي فجر حكم هذه السلالة تبرز مصنوعات من الخزف (دعوها مصنوعات بان — شان في كان — سو) وقد بلغ فن تزيينها دقة وجمالاً لا نجد لها

مثيلاً في المناطق التي نستطيع ان نقارن بين مصنوعات الخزفية في الطور الذي سبق التاريخ وبين الخزفيات الصينية التي تتحدث عنها كبلاد اوكرانيا ورومانيا . وبعد فترة (حوالي القرن الرابع عشر ق.م.) تظهر فجأة عاصمة شنغية : نغان - ينغ الواقعة في أقصى شمال مقاطعة هونان الحالية (حوالي القرن الثاني عشر ق.م.) ولها جميع الخصائص التي تتميز بها حضارة كثيرة التطور الى مبانٍ فسيحة ، وقبور ، وآثار قرابين ، وطقوس سحرية ، وأدوات عبادة ، وفنون استثمار النحاس والرخام واليشب ، وكتابات . ويضعنا فجأة علم الآثار وجهاً الى وجه أمام احدى عواصم الشنغ الاخيرة ، إذ لم يعثر بعد على العواصم التي سبقتها في الزمن والتي ترتقي الى حوالي ثلاثة قرون سابقة . وهكذا دون ان نقف على جميع مراحل تكوين حضارة تسترعي الانظار ، نجتاز بصورة مفاجئة من مرحلة مصنوعات خزفية ترتقي الى ما قبل التاريخ الى مرحلة استعمال مواد صلبة كالرخام واليشب والعظم استعمالاً دقيقاً ، ثم الى فن استثمار النحاس الذي يتطلب أدوات خصوصية ويفتح مجالات رحبة عدة . ويصل بعدئذ الى فن اللايقومات يدور كلياً تقريباً على اشكال حيوانية ويدل ، لكثرة الألغاز التي يثيرها ، على رموز ميثولوجية ، ثم اخيراً الى نوع من الكتابة التصويرية . سيتولد عنها رويداً رويداً نظام « الاحرف » الصينية . وتمثل لنا نغان - ينغ حقاً ذروة الفن الصيني القديم بما تقدمه لنا من نقوش رخامية وأدوات نحاسية طقسية دقيقة الصنع وفائقة الجمال : ولن يتوصلوا قط في الازمنة اللاحقة الى روعة هذه الادوات النحاسية ، كما لن يتوصلوا إلا بعد مرور قرون عدة الى مثل هذه النقوش الحجرية المائنة . وتنفق هذه الاكتشافات مع التقاليد الصينية التاريخية التي تبرز بكل وضوح أبهة وعظمة بلاط سلالة الشنغ .

ولكن لا تكتسب المعطيات التاريخية قوة ووزناً الا مع بدء حكم سلالة التشاو . وسمحت سيول المهاجرين الصينيين الذين تقدموا رويداً رويداً بفتوحاتهم نحو الشمال والعرب والجنوب ابتداء من السهل الكبير ، نقطة انطلاقهم ، الى استقرار الاسر الارستوقراطية استقراراً ثابتاً . واستوطنت أسرة التشاو في وادي «وي» العالي في شن «ي» (العاصمة تسانغ - نغان) . وعاشت الحياة الاقتصادية المعروفة في ذلك العهد تسييرها ضرورات الانتاج الزراعي والدفاع المسلح عن مناطقها ضد هجمات القبائل شبه البربرية التي كانت تحيط بالاراضي الزراعية . وفوت حياة التقشف والجد هذه أحد أفراد اسرة تشاو (وفا - ونغ) فتار على آخر ملوك الشنغ في القرن الحادي عشر ق. م . بعد ان لمس منه ضعفاً ، ثم هاجمه وطمر به وأعان نفسه ملكاً .

وغدا هذا الحادث فجر عهد سيدوم قرابة ثلاثة قرون تسيطر أثناءها السلالة الجديدة على مصير وتطور الحضارة الصينية . ولم يحدث هذا التطور دون عائق اذ لم يحصر النشاو بين يدهم السلطة المطلقة : لقد حكموا فقط أقوى مملكة في عهدهم واحبروا على خوض معارك دون هوادة ضد الامارات الثلاث الاسد قوة التي كانت تنفاسم بقية المنطقة « المتحصرة » . واتبعوا حياة

وقامت على انقاضها ثلاث امارت اخرى،التشاو والهان و«وي». واستمرت هذه الحالة السياسية
القلقة والمتقلبة وفقاً لاهواء واقدار القتال حتى سنة ٣٣٥ ق . م . عندما حقق الامراء
الاقطاعيون الأشد شكيمة تجزئة المملكة واتخذ كل منهم لقب « الملك » : وهذا هو بدء عهد
قيام «الممالك المحاربة» (التي وجدت بصورة عملية منذ سنة ٤٨١) . وهذا العهد هو فترة حروب
متواصلة ، وغالباً غير مشرفة جندت لها الجماهير الشعبية كما جندت فرق المرتزقة ، ولكن
بدأت مملكة تس ين منذ سنة ٣١٠ توحيد البلاد لمصلحتها . وقد انتهت عملها هذا سنة
٢٣١ : « وقد اسست الامبراطورية الصينية في نفس الوقت الذي حققت فيه الوحدة
الصينية » . (رنيه غروسه) .



الفصل الرابع

الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو

١ - عهد الشنغ

مع انه يستحيل علينا تحديد المراحل الزمنية لهذا العهد فقد حصلنا على بعض التفاصيل التي تصفه لنا بصورة قد تكون مجدية . وتتألف الصين في هذا الطور من بقعة متحضرة وسط شعوب من البرابرة . ومن المحتمل بأن شعب هذه الجزيرة قسم قسمين كما سيحصل في الزمن اللاحق . وعلى رأس المراتب يوجد الملك (ونغ) الذي ينظم في الوقت ذاته الامور الدينية والمسائل المدنية والادارية . ولكن من المحتمل بأنه كان لموجباته الدينية ، كما حصل في ازمة ما قبل التاريخ - الافضلية على مهامه المدنية . وعاش الملك ، وهو شخص مقدس ، في قصر منفرد ، يقوم باقام الطقوس الموسمية والرسمية ، اذ يستند اليه نظام العالم الطبيعي . وقيم المقر الملكي ايام الشنغ ، كما كان ايضاً عهد التشاو ، في احدى ضواحي العاصمة الجنوبية - الغربية . ومع هذا يظهر بأن الملك سكن في العاصمة . وكانت سلطته مبدئياً مطلقة . ولكن بقي الملك مع هذا اساس نظام سياسي محدد ينقل الوزراء وكبار القواد والموظفين اوامره ، وذلك نسبة الى عزله المقدسة التي فرضت قديماً وسطاء بينه وبين شعبه . ويقدم الملك كل الذبائح الكبرى الى الآلهة او الجدد الاموات . وهو الذي يستشيرهم بواسطة السحر عن الحصاد وتربية المواشي وهبوب الارياح وهطول الامطار الخ ، وقد يقوم ، عندما يستلم زمام السلطة ، برقصة تذكر بانتصارات جدد الميثولوجية .

ويعيش الملك في قصر قائم في العاصمة . ويحيط به وزيره الاول (كنغ - شه) وكبار قواده الذين ينقلون اوامره وقراراته ، ويسهرون على تنفيذ اصول اللياقات اثناء الاحتفالات الكبرى ، ويعدون ويحفظون المستندات الملكية ، ويقومون ببعض الطقوس ، ويسهرون على الكنز الملكي ويحفظونه . وهناك موظفون آخرون يساعدون كبار رجال الادارة هؤلاء . فهم

الذين يسهرون على تهيئة الطعام للقصر ، ونظافته وامنه . ويوجد بخدم (سو) مخصصون لخدمة نساء القصر .

ويهتم الملك بالدرجة الاولى بالانتاج الزراعي ، فيعين مفتشوه البذار ويراقبون الحصاد . ولا تختلف حياة الفلاح اختلافاً كبيراً عن الحالة التي ستصبح عليها ايام حكم السلالات اللاحقة ، أو تلك التي ستبقى عليها حتى عصرنا الحاضر . ولكن مع هذا يجب الاقرار بأنها كانت اكثر بداءة . واشهر مزروعات الحبوب استناداً الى طبيعة الارض هي الجاورس والحنطة والارز . وتحمي الاراضي المزروعة كوم من التراب . ويسكن الفلاحون في مغاور يحفرونها في الصخور وقد تلامس اللس (الارض الرسوبية) في المناطق الشرقية . ولم تكن البيوت - ان كانوا قد عرفوها في ذلك العهد - الا من السباع ، ولا تستطيع مقاومة تقلبات الطقس . واعتنوا بتربية الثيران الداجنة والاحصنة . الخنازير والخراف ، التي كانت تقدم ذبائح .

ويظهر بأن الحرب والقتل كانا من امتيازات النبلاء . واستفتى الملك فلوس السلاحف المقدسة ليعرف اذا كانت الاريح ستعترض اعماله هذه او اذا كان عليه ان يتخذ قراراً تفرضه الحوادث . ويتألف الجيش من الخيالة وعجلات الحرب والمشاة ، وكان هؤلاء من الفلاحين بينما انتمى اولئك الى النبلاء . ويذكرون جيشاً يعد ثلاثة آلاف رجل ، وفرقة من الخيالة تنقسم الى ثلاثة اقسام يضم كل منها مئة خيال . والاسلحة على شيء كثير من الاختلاف والتطور ، ويصنعونها خاصة من النحاس اذا ان الحجر واليشب اصبحا يستعملان فقط للأسلحة الطقسية . ولن يظهر الحديد الا في أواخر عهد التشاو . ومن الأسلحة التي يعدونها السيف والقوس (التي تصلح لاطلاق النبال او الكرات) ، والسهم والفأس والخربة .. وكانت الورقة من جلد . وتعاطوا القنص في الادغال التي تحيط بالاراضي المزروعة ، ويقومون به بجيش من المساعدين يقتلون او يقبضون على النمر والفهد والهر البري والسبتي والدب والثور الوحشي والفيال والكركدن والذئب والخنزير البري والضبع . وكانت هناك طرائد اقل شراسة تسرح زرافات زرافات كالابل والوعل والسعدان والارنب والعصفور ..

وان احتلت الزراعة المركز الاول في الحياة الصينية كما تثبت ذلك السؤالات والاجوبة المنقوشة على الفلوس او العظام السحرية ، فان الآثار القديمة التي وصلتنا تثبت ايضاً قيام بعض الفنون التقنية ومن ثم بعض المهن التي لا نعرف عنها مع هذا اي ايضاح . فهم يشتغلون العظم والعاج ، ويستثمرون وينحتون اليشب ، ويحفرون على فلوس السلاحف وقرون الكركدن والعظم والعاج واليشب والنحاس والحيزران . وقد توصلوا الى إذابة النحاس واعطائه الاشكال التي يريدون ، وعجن الخزف وشيئه واعطائه مختلف الهيئات .

ومن الصعب جداً ايضاً الوقوف على المعتقدات التي سادت في ذلك العصر ، مع الجهود التي بذلت في هذا المجال منذ اقدم الازمنة . ولكن باستطاعتنا التأكيد بأن المعلومات التي وصلتنا والتي تتعلق بالفلاحة والمحراث والطقوس والموسيقى والتقويم واعمال المساحة هي قريبة جداً

من الحقيقة ، ولكنها ستتلور أكثر أيام التشاؤ . لذا سنأتي فيما بعد على دراستها .

٢ - الحضارة الصينية أيام التشاؤ

ان توسع المجتمع أيام التشاؤ والتطور السياسي والاداري الذي حصل بصورة سريعة في بعض الامارات (كامارة تس ين مثلاً) منذ أواخر القرن الخامس يجعلان كل وصف يعطى بصورة قاطعة أمراً تحكيمياً . وعلينا ان نفهم بأن كل ما سنأتي على ذكره يختص بصورة اولية بالمناطق التي خضعت مباشرة للإدارة الملكية ؛ وسنقدر من ثم دون صعوبة مدى ما نحن مدينون به لكتاب هنري مسيرو « الصين القديمة » .

أصبح القنص والصيد وسيلتين للهو والتسلية أكثر مما هما وسائل لكسب العيش ، المستندات ولكنها يعودان مع هذا بالربح الوفير . ويستعملون للقنص الحصان . أما الأسلحة فهي القوس والنبال ذوات الرأس المعدني والشاك والمصائد . والطريدة متنوعة جداً : الرهو والتدرج والحضاري والأوز البري والساي والارنب وعناق الارض واليربوع والضبع والسنور البري والوعلة والاييل والخنزير البري والكركدن والثور والنمر الخ . والقنص هو لهو النبلاء والسادة . وقنص الحيوانات المفترسة هو لهوهم المفضل ، وهو من الألعاب الرياضية الشرسة يقومون به جماعات جماعات وينهونه بأقامة اعياد يفرضون فيها أكلاً وشرباً . ويعتبره الفلاح عمل سخرة يقوم به لإعالة سيده .

أما الصيد فهو أقل ذكراً من القنص ويستعملون له القراطل والشباك الصغيرة والكبيرة . وهم يعددون نحو عشرة اصناف مختلفة من الاسماك التي تستعمل للغذاء .

ولكن تطفو الزراعة على كل نشاط آخر . فان الانتصار على الارض ، وقد اشتد الصراع ضدها بكل شجاعة منذ عهد لا يدرك بداه عقل ، لا يتيح حتى ذاك التساريح تخصيص هذه المنطقة لنوع من المزروعات ، كما سيحدث فيما بعد : فالمنطقة الواحدة تنتج كل ما يحتاجون اليه . ومع تطور الجماعات الريفية كثر عدد الاصناف المزروعة ، واتسعت اعمال قطع الغابات ، وتزايدت افعال تهئية الارض للزراع بواسطة الماء والنار . وهم يستعملون المحراث والمنجل والفأس ، وكلها من معدن ، وخاصة الحجرية . ويسيرون في زراعتهم على المبدأ المتبع في زراعة الحضار إذ ان الحقول هي قليلة المساحة ويستثمرونها كما يستثمرون البساتين . وتنضد المزروعات حول الارض المرتفعة التي يسكنونها ، تجاور البيت المزروعات الأكثر قيمة : بستان الخضار ثم الاشجار المثمرة ، وعلى بعض المسافة حقول النباتات الفسيحة واهمها القنب ، ثم الخضار الجافة والحبوب ، واخيراً في أقصى جهات الارض المروية حقول الارز .

وأضافوا الى مزروعات العهد السابق (الجاورس والحنطة والشعير والارز) الذرة والكوسى والخيار واللوبياء والحمص (وهم يعرفون الاحتفاظ بهذه الاصناف يابسة) والبطيخ والثمار التي تؤكل ، يضيفون اليها العنب البري والبصل والثوم وبعض انواع الاعشاب التي يستعملونها

كتوابل . وتنمو في البساتين شجرة التوت وأنواع عدة من الأشجار المثمرة (كأشجار الكمثرى والكرز والدراقن والمشش والسفرجل والخواخ والكستنا والعناب ، وقد أدخلوا هذه الثمار الثلاث الأخيرة في بعض ألوان الطعام) . واعتنوا بصورة خاصة بشجرة التوت وغرسة القنب وهما منابع مرابع . وتستثمر شجرة التوت لتربية دود القز التي تغذي خيوطها المستخرجة أيام الحريف أعمال النسج طوال أسابيع الشتاء . وهم ينسجون القنب في الربيع . ويستثمرون أيضاً بعض أصناف اشجار الغابات (كأشجار البندق والخور والسنديان والدردار ...) . ويعتنون بتربية المواشي ، ولكن يظهر بأنهم لم يوحّدوا قطعاناً كثيرة العدد . وقد تنحصر حيوانات هذه الاقطاع ببعض الأحصنة والثيران والخراف . ولا يعتمدون على هذه الحيوانات لحرا العرّات إذ يقوم الإنسان بمعظم الاشغال مستعيناً بالسلال والققف ، مع انهم عرفوا العرّات . و يرون حيوانات داجنة للتغذية . كالحنّير والاربب والدحاح والعصافير . ولا بد من اضافة الهر والكلب والوعل الى هذه الاصناف ، وحتى القليل ايضاً في مناطق الجنوب .

ويختلف المنتج الزراعي باختلاف المناطق ، وتبعاً لحصص الارض وأهمية اليد العاملة وحسن مناخ الفصول . وتنتج بعض المقاطعات الارر بكيات هائلة ، كمنطقة تش رو ، وتستثمر غيرها للحبوب ، كمنطقة تسين التي تستطيع ان تمون ، كما يقال ، المناطق الاخرى في السنين العجاف . وهم يعتنون اعتناء خاصاً بأعمال الري التي تكون عنصراً اساسياً لهذا الازدهار .

وتعود ملكية الاراضي الى السيد . ويستغل الفلاحون هذه الاراضي لصالح المتبوع . واسناداً الى التقاليد الصينية ، التي تعكس كما يبدو الهدف الاعلى ، يوزعون الحقول على الفلاحين ، فتنال كل اسرة حقلاً . ولكل من هذه الحقول مساحة مربعة محددة ، تؤلف تسعة منها مجموعة واحدة . وتستثمر ثمانية من كل مجموعة لإعاشة ثماني عائلات ، اما منتج الحقل التاسع (ويعتبر من الممتلكات العامة) الواقع في وسط الحقول الاخرى والذي تعتنى به معاً العائلات ، فيخصص للملك او للسيد ويعتبر محصوله كضريبة .

وفي الصيف يسكن الفلاحون على الاراضي المزروعة في اكواخ مؤقتة . وعند اقتراب الحصاد يشددون الحراسة ضد السارقين والحنازير البرية والطيور . إذ للمحصول دور رئيسي في هذا العالم الاقطاعي ، فإن أتى جيداً يعتبرونه علامة نصر أكيد ، وإن كان رديئاً جلب الفساقة والجوع وزعزع نظام المملكة . ويكون هذا المحصول الهدف الذي يرنو اليه كل جيش مطفر .

والصناع والتجار قليلو العدد ، ومع هذا فهم اساس الحياة الصناعية التي عرفت حتى في هذا الطور بعض الازدهار ، ولكنها ستغدو ، في وقت لاحق ، منافسة خطيرة للزراعة . ويحتل النسج ، الذي تقوم به النساء ، المركز الاول : فيصنعن اقمشة حريرية وقد يطرزها ، وقطعاً من القنب ، وثياباً من خيطان النباتات التي تعترش . وعرف القوم كيف يضفرون الاشواك والاقصاب والقراص والتبن ، ويستعملون الحيزران ويستثمرون الجلود . ويصنعون من الخشب والمعدن

والخزف والحجر واليشب ادوات الفلاحة والمجلات والاسلحة (كالحراب والدبابيس والأقواس والسهام والتروس وسلام المعارك الخ .) وأدوات الموسيقى التي يكثر عددها حتى في ذلك العهد (كالطبول المختلفة الانواع والمزامير والأعواد والطنابير والأجراس والصنوج الخ .) وأدوات متنوعة جداً للاستعمال (كدبابيس الشعر والمخارز والمقاص والملاق والفؤوس والمراجل والطناجر الخ) . وهم قد استعملوا النحاس إذ لم يظهر الحديد إلا في أواخر عهد التشاو .

وغدا استثمار الأملاح والمعادن اساس ثروة بعض المناطق ، خصوصاً مقاطعتي تسين وتسين . وازدهرت أيضاً تجارة هذه المعادن .

ومع هذا لم تتسع التجارة إلا في وقت لاحق . وكان أساسها مبدأ الشراء والبيع او المقايضة . وقد أتوا على ذكر الأرباح التي بلغت مراراً حداً عالياً إذ يؤكدون وجود تجار أثرياء ، صاحبوا الامراء الاقطاعيين ، وعاشوا حياة بذخ ورفاهية ، يرتدون الثياب الحريرية المزركشة ويتنقلون في عربات يزيناها الذهب واليشب . وجرى التعامل التجاري بواسطة نقد كان ، أيام التشانغ ، عبارة عن نوع من الأصداف ، ثم أصبح قطعاً عظيمة ، الى ان غدا من النحاس وكانت وحدة هذا النقد اولاً «الوان» (نحو ثلاث اواق ؟) ثم - أيام التشاو الشرقيين - الكين (نصف اوقية ؟) وقد جعلوه سبائك تزن كل منها عشر اوقيات او اثنتي عشرة اوقية (؟) . ولم يسكوا النقود الاولى بأشكال مختلفة (كالسيف والجرس الخ .) إلا في أواخر القرن الخامس .

ومع نمو واطراد التجارة غدت مشكلة إيجاد طرق المواصلات وصيانتها هم الادارة الاكبر . ولا تسير فقط على الطرق قوافل التجار بل أيضاً العربات التي جهزت خصوصاً لتنقل الجمهور . ولم يستعملوا الانهر للتنقل قبل قيام الدول المحاربة . وكانوا يعبرون مجاري المياه سباحة او عند المهازات . وبواسطة وسائل النقل هذه تبادلت مختلف المقاطعات المواد الغذائية والاولية كالسلك والملح والنحاس والذهب والجلد والخيزران والخشب والزنجفر والحبوب .

ومع الزمن وتحسين سبل المواصلات وازدهار الصناعة اصبحت التجارة تنافس بصورة جديدة الزراعة . ومنذ القرن الخامس ق. م. يلاحظ المرء سعي حكام المقاطعات لحفظ التوازن بين الزراعة والتجارة وميلهم المتزايد لمساندة سكان الأرياف وحمايتهم وتأمين الأرباح التي تعود اليهم .

وتشمل الحياة الاقتصادية التي أتينا على وصفها الضرائب والأرباح والخسائر التي تسببها الحروب . وهو يختلف باختلاف المناطق ويزداد كلما ابتعد المرء عن العاصمة . وتسدد هذه الضريبة اكثر الاحيان باعطاء مواد طبيعية ، بينما تسدد الضرائب والمكوس في الاسواق بدفع قطع نقدية نحاسية . وقد تبلغ اكثر الضرائب فداحة ربع المنتج ، ولكن لا يصل منها الى الخزينة الملكية إلا جزء ضئيل بسبب بطء المواصلات وكثرة عدد الوسطاء الاداريين بين العاصمة والمقاطعات . ويفرض ذوو السلطة الاقطاعيون ضرائب مباشرة ، كما تجبى مكوس من أنمان

السلع المتبادلة كالسكك والملح . وتحجى الدولة علاوات اضافية من الغابات والاملاح والمعادن التي تحتكرها . ومع هذا يبقى ربيع الخزينة أقل من الربيع الذي كان من الممكن ان يحققه نظام يقوم على المراقبة الدقيقة والجدية . وان هم أمنوا ما تطلبه الحياة العادية فان المصاريف الاستثنائية تجد خزينة فارغة .

المجتمع يظهر أن المجتمع ، أيام حكم التشاو الغربيين ، لم يقسم فئات محكمة الوضع كما سيجري ذلك بصورة مطردة عندما سيعمون الى تحقيق الوحدة السياسية وتثبيت السلطة المطلقة . فهناك طبقتان كبيرتان تضم أفراد المجتمع : طبقة الفلاحين السفلى ، وطبقة النبلاء العليا (شي %) وهم الأشراف بالوراثة . ولكن سرعان ما تشعبت الطبقتان فرقاً فرقاً ، تبرز الواحدة زميلاتها حقوقاً . ففي المقام الدّون ، نجد العبيد والفلاحين ثم نرتفع تدريجاً الى العمال الصناعيين والتجار فالأدباء فالموظفين فالوزراء فالموظفين الكبار فالنبلاء فالأمراء حتى الامبراطور الذي يسيطر على هرم الرتب .

ان أساس المجتمع هو دون شك عامة الشعب . وللغامة هذه نظام يختلف في كل شيء عن نظام النبلاء . فالفلاحون ، وهم يشتغلون سوية ويعيشون معاً ، لا يتمتعون بشخصية ما ولا يأتون ببادرة ما . انهم تباع الارض التي يستثمرون ، وينتقلون معها من يد الى أخرى دون أن يصبحوا لها مالكين بالمعنى الحصري . انهم لا يتبعون طقساً بل يخضعون فقط للتقاليد .

ومن المفروض ان يحجى الفلاح من عمله كل ما يحتاج إليه ليقوم بأود أسرته ويبيع ما يفيض في اسواق المدينة . وهذه هي علاقته الوحيدة مع العالم الخارجي والادارة . ومع هذا فلا تختص هذه العلاقة بالفرد بل بالطبقة التي ينتمي إليها والتي لها وحدها شخصية معنوية أمام رجال الحكم والادارة . ان حياته رهن بالفصول . ففي الشتاء يزوي الفلاح بحكم الضرورة ويعود الى قصبته مع أفراد أسرته ليعيش ضمن اطار بيته وبستانه الصغير ويقوم بالأعمال التي يتطلبها المسكن . وعند حلول الصيف يترك الفلاح قريته ويقم مع امرأته وأولاده على الأرض التي يزرعها ، وقد حمل أدواته الضرورية وأشعل ناراً جديدة في بقعة حددت خصوصاً لهذه الغاية في الحقول . ومع الحياة هذه في الهواء الطلق تنكشف على نفسها نظم حياة الاسرة إذ يخضع كل شيء عندئذ للحياة الجماعية .

ولا يعرف أفراد العوام هؤلاء الزواج (هوان Houn) ، إلا طقوس خصوصية لهم ، بل موافقة الرجل على العيش مع المرأة معاً (بن Pen) . ويجري بهذا الأمر عادة في الربيع ، وذلك استناداً الى رأي الوسيط ، في وقت يقيمون فيه اعياداً كبيرة تسعف اقامة الفلاحين على الارض التي سيستثمرونها . وهذا الاتحاد هو حر طليق من كل شرط ، يثبتونه ان تحقق الأمل بالجناب البنين ، أثناء حفلة عمومية .

وتختلف الطبقة الاجتماعية الاخرى ، فئة النبلاء ، عن العوام اختلافاً أساسياً بمسألتين

رئيسيتين : فلكل من افراد هذه الطبقة جودود ، وهو ينتسب الى اسرة . وتنتج عن هذه الحقيقة سلسلة اختلافات جوهرية : فالجد، وقد كان رجلاً نبيلًا ، او بطلا او امبراطوراً ، امثلك دون شك ارضاً او قام بوظيفة رسمية . واستناداً الى هذا الواقع فهو قد أدى طقوس العبادة واعطى اسم جماعة . لذا غدا من الطبيعي ان يصبح أحفاده اعضاء في قبيلة ما ، فيقيمون طقساً ، ويعطون ارضاً او تسند إليهم وظيفة . وبينما يضيع الفلاح وسط جماعة لا اسم لها ولا خصائص ، يصبح للفرد النبيل شخصية محددة ضمن عشيرته .

ولهذه الجماعات ايام التشاؤ ، مهما كان اصلها ونسبها ، خصائص جماعية دينية تحرم على افرادها كل علاقة زواجية فيما بينهم . ويبدو بأن عدد هذه الجماعات كان محدوداً ولم يتجاوز المئة . وكرّمت كل جماعة جديداً كان يعرفها إلهاً او بطلا (إله الجاورس ، إله قمة الشرق الح.) . وكان لبعض من هذه الجماعات جدّ واحد . ونجد في هذه العبادات التي قدموها للجدود ، وقد يكونون بعض المزارع حيوانات او نباتات كالجاورس ، آثاراً قديمة جداً ، ولكن يصعب الوقوف عليها في هذا العهد .

وان كان التقسيم العشائري يقيم من النبلاء جماعة دينية فان التقسيم الذي يسيطر على تنظيم الاسرة والفرع والبيت هو تقسيم اداري ومدني بحسب ويعتبر فرعاً من الاول . ان رأس البيت او الاسرة هو السيد المطاع : فهو الذي يقرر الزواج أو يبطله والذي يقبل او يرفض الأولاد ؛ وهو يمثل بشخصه كل أفراد المجموعة ، ويقاضيه ويعاقبهم مباشرة دون ان يتدخل قضاء الدولة . ولا يخضع لسلطانه فقط افراد الاسرة المقيمون معه بل ايضاً الذين استقروا بعيداً .

وامتياز النبلاء الأساسي هو تملك الارض ، إن أعطيت لهم على سبيل الاقطاع او الملك الصرف . والنبلاء فئات عدة تتفاوت أوضاعها ان كانوا نبلاء ريفيين او قواداً كباراً او موظفين اداريين . وهناك مبدئياً خمس درجات بين الاشراف توازي تقريباً فئات من بدعوم اليوم دوق ومركيز وكونت وبارون وتختلف مساحة ممتلكاتهم باختلاف ألقابهم . ومع هذا تختلف ثروتهم المادية باختلاف الظروف . فقد نجد نبلاً وافراً الغنى يملك أراضي تدر عليه أرباحاً طائلة ، كما يلاقي شريفاً ذا ثروة بسيطة او حتى فقيراً جداً يحمد نفسه مضطراً لخدمة سيده الذي يدافع عنه ويقدم له الغذاء وذلك بدل طاعته وخضوعه له : فهو يسير معه الى الحرب ويسلك في كل شيء كأنه تابعه ، ويقوم بوظائف مختلفة في بيت متبوعه كأن يصبح امير أخوره او سائق عربته او احد جنوده او حارس ثروته او احد طهاته الح . وقد يختار بعض النبلاء القليلي المال أعمالاً اكثر حرية (كمعلم في مدرسة قروية او كاهن او ساحر او منجم او طبيب الخ ...) كما يتعاطى بعضهم التجارة او يصبحون وكلاء عند كبار اصحاب الأملاك ولكنهم يبقون ، مهما أصبح مركزهم ، أهلاً لتبوء أعلى الوظائف ولا يختلطون قط مع طبقة العوام إذ للنبلاء فضيلة

(طاو - طو) تعد اساس قوة وثروة الرئيس وهي التي تحمي بصورة معاكسة - ونستطيع ان نقول بالعدوى - البلاد بأجمعها من طبيعة الى حيوان الى انسان ، وتحفظ لكل شيء الازدهار وتبعده عن الوهن وحتى الموت . وهكذا يستند كل امر الى السيد وروحه هذه ذات المفعول السحري وهو يعد اساس هذا المجتمع الاقطاعي . انه يختصر في ذاته كل القوى الفاعلة ويحددها بواسطة الطقس .

ان امتلاك الاقطاع التي يقرر الملك تقليدها ، يجعل من النبيل أميراً او تابعاً لسيدته الملك او لأمير آخر اكثر قوة . وتجري هذه التولية أثناء احتفال مهيب وتعطي النبيل حقوقاً وموجبات جديدة فيما يتعلق باقطاعه وأتباعه وسيدته .

ان الملك هو في الوقت نفسه أمير الأمراء ، والنبيل الاول ، وابن السباء الذي وكل اليه سيد الاعالي مهمة حكم الشعب النبيلة والابقاء على نظام العالم الطبيعي إذ تعادل فضيلته المهمة المسنودة اليه . وهكذا يتم التوازن ما بين سلطاته الكهنوتية والسياسية . فهو يحدد الوقت في كل شهر ، ويقر القوانين ، ويسمح بمقابلته ، ويلغظ الاحكام الخ . والسلطة الملكية اثرية يرثها الابن عن الأب . ويعتبر ابن الامراة الشرعية البكر الوارث القانوني . وعلى النساء ان ينظرن ويقررن هذا الامر قبل حدوثه إذ لا بد من إقامة طقس خصوصي حتى ينقل اخو الملك المتوفى او ابن شقيقته ولو بصورة رمزية السلطات الى الوريث صاحب الحق .

مع اتساع مدى الزراعة والتجارة والمدن غدا من الضروري ان تصبح الهيئة الادارية الادارة ايام التشاور اكثر تنظيماً . وشبهوا الادارة هذه بهرم يسيطر على قمته الملك ووزيره الاول الذي لا يقل عنه بالواقع سلطة ونفوذاً خصوصاً اذا كان الملك ضعيف الارادة . ثم يلي الملك ورئيس وزرائه الوزراء الثلاثة الأكثر أهمية وهم وزراء الزراعة والحرب والاشغال العامة . ولوزير الزراعة دون شك الأهمية الكبرى في بلد زراعي وحضري في الدرجة الأولى . وهو يدير جهازاً محلياً يقرر بكل دقة أعمال الحقول ، وكيفية تصريف المحاصيل ، وبصورة أعم حياة الفلاحين أنفسهم ، وزواجهم وأعيادهم واجتماعاتهم . ويعتني وزير الحربية بكل الشؤون العسكرية كتجنيد الجيوش ومواسم الصيد والاستعراضات والتدريب الحربي : وهو يراقب مستودعات الذخائر والعربات والحيول وزرائب الأحصنة الأصيلة . وهو الذي يمثل معنوياً الامبراطورية اذ يحمل بكل عظمة وقت إحراز النصر ويرتدي ثياب الحزن ان اندحرت جيوش الدولة . ولا يهتم وزير الأشغال العامة إلا في الحقول وما يعود اليها . فهو الذي يقس الحقول ويوزعها ويقيم الطرقات ويسهر على صيانتها ، ويبني القنوات والسدود الخ . وعلاوة على هذا فهو يهتم أيضاً بشؤون العمال الصناعيين .

ويلي هؤلاء الوزراء ثلاثة وزراء آخرين يعتنون بأمور الملك الخصوصية وبالقبضاء الجزائي . ويهتم الاول بصيانة القصر الملكي وتمويله وتأمين سير الخدمة فيه سيراً حسناً ، وبالأموال الملكية

ويعتني الثاني بصورة خاصة بشؤون العبادة ويراقب الكهنة والمنجمين والسحرة والأطباء الخ . ويعود الى مدير الشؤون القضائية الجزائية تطبيق القانون وإنزال العقوبات . وتتراوح العقوبات ما بين أحكام الموت ووشم الوجه مروراً بقطع الاعضاء التناسلية والأرجل وجذع الأنف . وهو لا يتعاطى القضاء بصورة شخصية إلا متى عوقبت الجريمة بالموت . ومع هذا يمكن استبدال كل عقوبة بدفع بدل حسب معدل مقرر يبلغ ألف سبيكة نحاس لإنقاذ حياة الرجل . ويحيط بهؤلاء الوزراء (وقد أطلقوا عليهم منذ القرن الرابع ق . م . اسم « الوزراء الستة ») عدد كبير من الموظفين . وهكذا غدا هيكل رجال ادارة البلاد معقداً جداً .

ولا تقتصر بطانة الملك على من ذكر ، اذ نجد ايضاً مجلساً يحمل اعضاؤه ألقاباً شرفية دون ان تحدد مع هذا وظائفهم . وعلاوة على ذلك فهناك وظائف في القصر الملكي وهي غالباً ما تكون إرثية يسمون اليها بكل نشاط اذ تقرب أربابها من الملك : رئيس الخوان ، وأمناء سر المال ، وكبير الكتبة الخ . ولا يخلو نظام الادارة هذا من بعض الشوائب . وخطؤه الأكبر انه يعمد بوظائف مختلفة الى الاشخاص انفسهم . لذا - عندما يضعف الملك - تتفكك عرى هذا النظام وتعمق الهوة التي تفصل بين الواقع والمباذى .

وتقسم ممتلكات الملك الى مقاطعات (هيانغ) يحكم كلا منها قائد كبير (تي - فو) . وتتجزأ هذه المقاطعات بدورها الى محافظات فنواح فمديريات فمدن فقرى يتولى شؤون كل منها موظفون تقل رتبهم بصورة تدريجية . وينتخب هؤلاء الموظفون من الاشراف والنسلاء المحليين ، وهم يهيمنون تماماً على حياة الريف والمدينة فيقدمون الذبائح المقررة وينظمون اعمال المساحة واحتفالات الحياة الشخصية ، ويشرفون على عائدات المحاصيل الزراعية ويستوفون الضرائب . وهم يقدمون سنوياً تقارير لرؤسائهم عن اعمالهم ، ويوجد مفتشون يراقبونهم يضعون التقارير عن كيفية ادارتهم ، ويساعدهم جيش من الموظفين ذوي الاختصاص يكون الشعب على اتصال مباشر معهم كالمشرفين على المستودعات والجباة والموزعين الخ . ولا تقتصر مهمة رجال الادارة هؤلاء على تصريف شؤون البلاد المدنية بل تتعداها الى الاعمال القضائية يساعدهم فيها قضاة محليون . وتخضع القضية التي تتجاوز صلاحياتهم الى سلطات قضائية اعلى . وتضاف اخيراً الى وظائفهم المدنية والقضائية هذه مهام حربية اذ يصبح رجال الادارة هؤلاء في زمن الحرب تحت تصرف وزير الحربية . والتنظيم الحربي هو صورة طبق الأصل للنظام المدني وقد كان ذاك مثلاً لهذا في القرون الغابرة .

ويتألف الجيش من رجال تجبر الأسر على تقديمهم (وعلى كل اسرة ان تقدم محارباً) . ويبلغ عدد الجيش (١٢ ٥٠٠) جندي يقسمون خمسة فيالق ، ويجزأ الفيلق الى خمس كتائب والكتيبة الى خمس فرق ، توافق كل منها منطقة . وللممتلكات الملكية ستة جيوش ، ولا يحق للاتباع إلا حشد ثلاثة جيوش او جيشين او جيش واحد . ويشمل كل جيش ، علاوة عن فرق

الخيالة ، عربات قتال تجرها الخيل . وسلاح المعركة هو الحربة والقوس ، وتعطى الأوامر بواسطة الطبول والاعلام . ويجهلون خطط القتال ، التي لن تعرف التطور والرقى إلا مع ظهور الممالك المحاربة ، عندما يحل الخيالة مكان العربات . ومع هذا فللجيش منزلة رفيعة في حياة الرجل النبيل ؛ ففي هذا العهد الاقطاعي حيث تلعب المعارك والفتوحات دوراً عظيماً غدت الحرب عمل بطولة شريفة تخضع لقوانين المدينة التي تنعكس أنظمتها على كيفية ترتيب المعسكر والتي توافق سلسلة درجاتها الادارية مع سلسلة المراتب العسكرية .

ولكل امانة واقطاعة نظام اداري يشبه نظام ادارة الأملاك الملكية . وسعى ملوك التشاو لجمع هذه المناطق وتوحيد حكمها : لذا قسموا البلاد الى تسع مقاطعات (تشاو) يعين على رأس كل منها حاكم (بو اومو) يمثل السلطة الملكية ويحافظ على الأمن . ويصدر الأحكام القضائية . ويكون عادة هذا الحاكم نبيلاً من المنطقة ، ويحجب بصفته من أتباع الملك المباشرين ان يقدم للعامل الخضوع في اوقات محددة ويؤدي له ضريبة عينية - تتكون عادة من المنتجات التي تتوفر بها المنطقة - ويقدم له العون في زمن الحرب .

وهذا النظام هو بعيد عن الكمال والدقة إذ يسعى غالباً هؤلاء الحكام ، وقد غدوا بمعزل عن المراقبة الملكية ، لتحرر من السلطة المركزية لابل للتحالف ضدها احياناً . ولن تجدي مساعي التوحيد الاولى حتى ولو قام بها ملك متجبر وقوي الشكيمة إذ ان عزلة كل مقاطعة واستقلال الحكام وصعوبة المواصلات تؤلف عوامل تساعد الانتفاضات الفردية وتحول دون قمعها . ويقوم الأمراء انفسهم بأعمال الأمن ويفرض بعض منهم قوانين أشد صرامة من قرارات الحكم المركزي ، ومن أشهر هؤلاء الكونت هياو من تسين في القرن الخامس الذي أقام ، بمساعدة وزيره يانغ ، حكماً مطلقاً تعد اصلاحاته امراً ثورياً بالنسبة الى السلطة المركزية . ففي كل ناحية من نواحي الصين الغربية المتعدنة ظهرت اصلاحات مماثلة تهدف الى تعديل النظام الاجتماعي وتحسين انتاج الارض وتوزيع المهام الادارية وتأمين موارد منتظمة . وهذه هي تباشير سقوط حكم التشاو وسيادة الممالك المقاتلة .

ينقسم رجال الكهنوت فئتين لكل منها منزلة على طرفي نقيض مع الاخرى . رجال الكهنوت ويتخذ افراد الفئة الاولى من النبلاء ويتفرعون طبقات عدة فمنهم الكهنة الرسميون والمصلون والمنجمون والسحرة ومفسرو الاحلام والمظاهر الطبيعية والفلكيون ، وتشمل الثانية رجالاً ونساء ينتمون عادة الى فئة اجتماعية وضيفة لذا أعدوا محتقرين يتعاطون السحر ويكونون كمن اعترام مس شيطاني .

وينتمي عادة رجال الكهنوت الرسميون الى أسر تحتفظ بكل ضراوة بامتيازاتها وخصائصها ويتدخل هؤلاء الكهنة في كل المناسبات الكبرى ، ولكل منهم اختصاصه الدقيق ولا يستغنى قط عن خدماتهم . فهم الذين يديرون اعمال الذبائح ، ويتلون الصلوات التي تكرس الاتفاقات

والمعاهدات، ويراقبون حفلات الدفن، ويتنبأون عن مصير الحرب والصيد والزرع، ويفسرون الاحلام والعلامات والرقى (بواسطة اسقاط السلاحف كما جرى ايام الشانغ) ، ويسدون النصح للنبييل أو للملك عند اتخاذ القرارات العويصة .

ولرجال الكهنوت هؤلاء (وقد غدت بعض وظائفهم وراثية) عدد من المساعدين الثانويين يقومون بدور ما في اتمام اعمال العبادة : الموسيقيون والكتبة والخدام والموظفون ، ولكل اختصاصه ويرتبط بفئة معينة من فئات رجال الكهنوت .

ولا يؤلف رجال البيعة طبقة كهنوتية مع انه لا غنى عنهم نسبة لما يقومون به من وظائف، وان تمتعوا ببعض النفوذ في الدواوين فقد ألحق كهنه املاك الملك بوزارة الشؤون الدينية واعتبروا كموظفين . ولا يبدو بأنهم خضعوا لقوانين حياة معينة إذ لا يميزهم شيء عن النبلاء . إنهم رجال مهنة يتوارثون فنهم اباً عن جد .

ويختلف عنهم كثيراً السحرة (هي) والساحرات (وو) الذين ينسبون الى العوام او الى الطبقة النبيلة وتدعو مهنتهم كأنها دعوة ورسالة وليس إرثاً . والأطباء ومستدعو الامطار ومخرجو الأرواح النجسة الح، هم وسطاء ينشئون علاقات مع الآلهة والأرواح فيصبحون مطية لهم، لذا يتخذهم الآلهة والارواح أداة يعملون بواسطتها وينطقون بلسانها أثناء حفلات الاستلهم التي تشمل حركات تمثيلية ورقصاً وأناشيد لم يعدوا العدة لها ، يقومون بها على أنغام الطبل والمزمار التي تثير حماساً جنونياً . ومع ان رجال الكهنوت الرسميين قد استنكروا وجود السحرة (وقد يعسل هذا الاستنكار الى درجة حرقهم أحياء !) فان هؤلاء السحرة يلعبون دوراً هاماً في حياة النبييل ويكونون من عداد بطانته . وتزداد اهميتهم في القرى حيث تعيش طبقة العوام الذين لا طقوس لهم ، لا بل نشاهد في بعض المناطق جماعات لتعاطي اعمال السحر .

اختلقت الثقافة وطرق الحياة اختلافاً بيناً تبعاً لطبقات المجتمع إذ ، كما سبق أسرة الفلاحين رأينا ، يستحيل المقارنة بين العوام وطبقة النبلاء .

والفلاح هو ثمرة مجامعة (بن) وليس زواج قانوني (هوان) كما هي الحالة عند النبييل . ففي ربيع كل سنة ، بعد افتتاح موسم الزواج الذي يقوم به العاهل وقبل الخروج الى حقول الزراعة، يذهب الشباب والصبايا للغناء في الحقول اما جماعات واما ازواجاً . وتتم المجامعة في الهواء الطلق ولهم الحق في التلاقي كما يريدون طيلة موسم الاعمال الزراعية . ولكن عندما يحين موعد الرجوع الى القرية في بدء الشتاء وتعود كل اسرة الى الانزواء في بيتها وتنتهي إذ ذاك الحياة الجماعية يفترق الأزواج ولا يستطيعون التلاقي بعدئذ إلا بصورة خفية . وعند عودة فصل الربيع اللاحق يتلاقى الأزواج ثانية او ينتخب الواحد رفيقاً آخر . وعندما تبلغ الفتاة العشرين ربيعاً تتزوج -- إلا اذا كانت قد حملت قبلاً -- أما الفتى فلا يتزوج إلا في الثلاثين من عمره . ولا يتم اتحاد الأزواج لما يلاقي الواحد في الآخر من جاذبية شخصية ، كما قد يتبادر الى الذهن بسبب ما سبق قوله ،

ولكن لضرورة التقارب بين الأمر . ويبدو بأنه كان محرماً ان يتحد الشخص مع شخص آخر من قريته . ويبدأ الوسيط المهادنات ويتابعها وتتم الحفلة برئاسته في الخريف ، وقد يتم اقد الأزواج اثناء عيد جماعي واحد . إذ ذاك تغادر الفتاة قرية اهلها لتلتحق بقرية زوجها وتنقطع عن الغناء في أعياد الربيع . ويصبح اتحاد الأزواج من ثم غير قابل للانفصام .

وتحدد التقاليد بكل دقة علاقات الزوج بزوجه ، ويحرم التعاطي الجنسي مدة فترات عدة في غضون السنة . وتفرق الزوجين الواحد عن الآخر طبيعة الأعمال التي يقومان بها فتخلق من ثم مجتمعاً للذكور وآخر للاناث . فالرجال يقومون بأعمال الحراثة وتربية المواشي بينما تعني النساء بالمنازل (حيث لا يدخل الرجل إلا نادراً) والغزل .

ولا نجد تحديداً واضحاً لدرجات القربى او كلمات تميز بوضوح الابناء والاخوة وابناء العمومة . فهناك علاقات قريبي جماعية تربط بعض الافراد فيما بينهم وتجعل منهم فئة اكثر وحدة وأقل انفتاحاً . ويشارك اعضاء المجتمع العائلي الواحد أحزان بعضهم ويأكلون طعاماً أعد على نار واحدة .

وتتأثر حياة القرى بتتابع الفصول . ففي الخريف والربيع يجتمع الرجال والنساء ويقضون وقتهم في اللهو والعبث : سباق للعشور على بيض العصافير التي تهاجر من بلد الى آخر ، ومصارعة ورقص وغناء وقطف النباتات البرية وتراشق بالزهور وصراع يتنافس فيه الشباب والصبايا وهم يرقصون على إيقاع أغان مرتجلة الخ . ويختتمون هذه الملاهي بالأكل والشرب وقد يعقدون عقوداً ومبادلات كما لو كانوا في الأسواق .

وعندما تنتهي السنة الزراعية ويحين موعد الرجوع الى القرية يحتفل الرجال معاً بانتهاء الموسم ، ويقبضون الهدايا . ويبتدىء إذ ذاك الفصل الموات باقامة حفلة ال « نو الكبير » الذي ينذر بحياة الشتاء للإنسان والحيوان . ولا يشترك في هذه الحفلة إلا الرجال فقط فيرقصون ، وقد تنكروا بأشكال حيوانية ، على نغم دف من الخرف ، وينغمسون في الأكل والشرب لينتهيوا الى السكر والمجون بعد ان يكونوا قد انفقوا بسعة ؛ ويشرف الشيوخ على هذه المهازل العمومية . وتختتم اعياد باتشا اوقات العمل التي تسبق مباشرة فصل الشتاء ويقوم بهذا الاحتفال شيوخ القرية فيرتدون ثياب الحزن ويمسكون بأيديهم العصي ويدعون الرجال لبدء فترة العزلة التي ستعد بدورها بعث سنة جديدة .

وترتبط الولادات عند الفلاحين بطقوس الماء ؛ وتتم عادة حفلة اشراك الولد عند الاحتفال بأعياد الربيع . وترمز كل مرحلة من مراحل الحياة الى الفصول وتبدلات الطبيعة المقدسة .

تتأثر حياة النبل في ضرورة تأمين استمرار الطبقة وعبادة الجدود . حياة النبلاء
لذا فان الزواج عمل ديني يخضع لضمانات محددة . وتعدد الزوجات هو القاعدة ولكن لا يستطيع النبيل ان يتزوج إلا مرة واحدة ، لذا يعقد قرانه في الحفلة نفسها على امرأته

الاساسية وعلى نسائه الثانويات. ويحرم على الزوج ان ينتخب نساءه من اسرته . ويختلف عددهن تبعاً لمقامه : فله الحق بامرأتين إن لم يكن صاحب مركز مرموق ، وبثلاث نساء إن كان قائداً ، ويتسع إن كان أميراً. وللملك الحق باتخاذ اثنتي عشر زوجة. ويضاف الى هؤلاء الحليلات عدد من الحليلات إن كان الزوج غنياً واستطاع ان يبتاعهن . ولا يكون الوسيط إلا احد الأقارب او صديقاً انتخب لهذه الغاية ، وهو يقوم بالخطوات الضرورية حتى اعلان الخطبة . ويوم الزواج يأتي الشاب ليأخذ الفتاة ويبدو كأنه يريد سوقها في عربة . وعندما يصلان الى البيت الزوجي يأكلان معاً طعاماً يتكون من ثلاثة صحون أريقت عليها ثلاث كؤوس من الخمر . وتتكون الكأس الاخيرة من ثمرة كوسى قسمت قسمين . ثم يأتي العروسان الى غرفتهما الزوجية حيثما ينزعان ثيابهما وفقاً لتقاليد خصوصية . وفي الغد يقدم الرجل امرأته الى أقاربه الأحياء والأموات؛ وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على وصول الزوجة الى اسرتها الجديدة تصبح حقاً من افرادها إذ تشارك طقسياً بالذبيحة الاحتفالية التي يقدمها الزوج لأجداده . وبعد الاشتراك فقط بهذه الحفلة تصبح الى الأبد زوجته الشرعية .

ولا تستدعي ولادة الاطفال ، شرعيين كانوا او لا ، إلا القليل من الطقوس . ولكن لن يترك جميع هؤلاء الاطفال على قيد الحياة : فهم يقتلون او يهملون المولود الذي يرى النور في وقت يحسبونه شؤماً ، او في الشهر الذي ولد فيه ابوه ، او التوائم الثلاثة الخ . وعلى كل فالمولود، ذكراً كان أم أنثى ، يترك وحيداً في غرفة دون أكل ولا عناية ، وذلك طيلة الأيام الثلاثة التي تلي رؤيته النور . وإن صمم رئيس الاسرة بعد انقضاء هذه الفترة على قبول الطفل ، ينقل هذا الاخير إذ ذاك الى مساكن النساء ويرضع الحليب لأول مرة . وعندئذ يعلن الوالد رسمياً مولد طفله وذلك بتقديم ذبيحة للجدود ؛ ثم بعد ثلاثة اشهر فقط يعرض عليه ابنه .

ويقيمون أثناء عهد الصبا بعض الطقوس : حفلة قص الشعر ، وقد يترك للصبي خصلة شعر على قمة رأسه بشكل قرن وللفتاة على شكل صليب ، ثم حفلة انتخاب الاسم (منغ) التي تدحل المولود حقاً في سجل الاسرة التي تنتمي اليه من ثم الوجود وتقرر مصيره .

وتختلف الثقافة باختلاف الجنس . فالصبي يتلقى العلم في مدرسة المنطقة اما الولد الكبير فله الحق بالذهاب الى المدرسة الملكية في العاصمة ، ويمنح هذا الحق ايضاً للمتفوقين من تلامذة المناطق . وتستمر سنو الدراسة من العاشرة حتى العشرين وهي تشمل الفضائل الثلاث والطقوس والعلوم الست (الرقص والموسيقى وقيادة العربة والرمي بالقوس والكتابة والحساب) . ولا يتعاطى قط التلامذة مع العالم الخارجي بل يسجنون داخل مدرستهم او جامعتهم . وعند انتهاء الدروس يصار الى اعطاء القبة الرجالية (كوان) التي ترمز الى انتقال الصبي الى عهد الرجولة؛ وعندما يرجع الى ذويه يدع شعر رأسه ينمو وينتظر شهرين لاقامة هذه الحفلة الرسمية فيعطونه اثناءها اسماً جديداً (تسيو) . وتبقى الفتاة مع الذكور حتى ربيعها العاشر ثم تعزل داخل بيت

الحريم حيث يلقنونها اساليب الطاعة والاعمال النسائية ويطلعونها على الدور الذي ستدعى للقيام به في الحفلات الدينية . وعندما تبلغ العشرين من عمرها ، او قبل ذلك ان تخطبت ، تعزل لمدة ثلاثة اشهر في هيكل الحدود ثم تعطى دبوس الزينة للشعر (كي) واسماً جديداً .

ان واجبات وامتيازات النبيل هي مبدئياً واجبات وحقوق المحارب . وهناك شبه دستور شرف يسيطر على اعماله مهما كانت وظيفته : يحرم عليه قبل كل شيء نخامة معلم او مرب قديم . ومن اهم واجباته الثأر للأسرة ، ويحول امام هذا الواجب كل نفع شخصي وقد يؤخذ الثأر من الأموات . والذي يقلد اقطاعة يشترك في حفلة رسمية تعد حدثاً هاماً في حياته ، فيستلم من يد ممثل الملك - وحسب طقس محدد - كومة من التراب وضعت على هيكل الارض الملكي ، ويعمل منها نواة هيكل إله الارض الذي سيقمه في ملكه . ولا تختلف موجباته وحقوقه عن حقوق وموجبات سائر الاشراف ما عدا العبادة التي عليه ان يقدمها لأرواح اقطاعه وحسن ادارة الجماعات التي تخضع له .

ولا تنتهي اعمال النبيل الا عندما يبلغ السبعين من عمره ، لا بل غالباً ما يستمر في تأدية خدماته حتى موته وان كان قد اجبر على فقدان احد اعضائه التناسلية او بتر رجله ليتولى بعض الوظائف . وطقوس الحداد على النبيل ودفنه محددة بكل دقة حتى تستطيع نفسه «العالية» ان تصبح من عداد الحدود وتنعم في مقرها السماوي بالامتيازات نفسها التي تمتعت بها على الارض . ويفرض على جميع افراد الاسرة ان يساعدوا الشريف لبلوغ هذا الهدف بعد ان يكونوا قد تأكدوا من موته . واثناء غسل جثة الميت يضعون في كل من نوافذها حجراً صغيراً من اليشب ، ثم يلبسونها ثوباً خاصاً (منغ بي) ويسجونها على سرير مزخرف بالقرب من بئرق كتب عليه اسم الميت . واثناء النسيجية - التي تختلف مدتها تبعاً لمنزلة المتوفى - يهرع الاقارب والغرباء يقدمون تعزيتهم الى اولاد الفقيد الذين يرتدون ثياب حزن بيضاء اللون . وتوضع الجثة في تابوت حشوا داخله بالحرير الاسود ثم ينقلونه الى مدفن موقت . ويحمل اولاد الميت اذ ذاك عصا الحزن ، رمز قنوطهم . ويتكون القبر الاصلي من عرفة تعلوها كومة من التراب ويتقدمها ممر مكشوف فرشوه بالبلاط . وبعد فترة تقصر او تطول نسبة الى مقام المتوفى يأتيون الى هذا القبر بالنعش وقد لفوه بقماش ابيض . ويرافق النعش موكب كبير ينوح افراده ويصرخون وقد سار على رأسهم الساحر ؛ ويأتي المشرف على القبور لينزل الى حنب النعش في الحفرة الاشخاص الذين اعدوهم ليرافقوا المتوفى ويكونون له خدما اذ يجب ان يحيا الميت في عالمه الجديد حياته العادية مع اسلحته وبلاطه وخدمه . وعند الاسر الفقيرة يستبدلون بدمى من القش او الحشب هؤلاء الضحايا الذين يدفنون احياء والذي يختلف عددهم اسناداً الى منزلة الميت . وعندما تنتهي اعمال الدفن يذهب ابن المتوفى الى هيكل الحدود ليضع لوحة ابية الموقته ويقدم القران ، ثم يقيم مأدبة يشترك فيها ممثل عن الميت (سه) . وهكذا تنتهي سلسلة حفلات الدفن .

وان كان الملك ، بصفته بديلاً ، يحيا حياه خاصة لا تختلف الا قليلا عن حياه افراد رعيته ،

فانه مع هذا ينسق منهجه كما تفرضه واجباته الدينية والسياسية فيقسم وقته بين الدبائح الشهرية والاستقبالات الحافلة واصدار الاحكام القضائية واقامة المآدب . فهو في كل صباح يبحث مع وزرائه شؤون الدولة ، اما الملكة فتقرر امور القصر . ويسبب موت الملك اقامة حفلات اكثر ابهة وشمولاً من وفاة النبيل العادي . وقبل ان يشعر الملك بدنو اجله يعهد الى الحارس الاكبر (وهو واحد من ثلاثة نبلاء يدعى كل منهم دوق) بتسليم الحكم الى الابن البكر من زوجته الشرعية . وبعد موت الملك يعد الحارس الاكبر حفلة الدفن ، ويسجل وصية المتوفى بواسطة الكاتب الاكبر ، ويرشد الامير الوريث في فترة الحزن ثم يعد العدة لحفلة تتويجه . وتم حفلة التتويج بنقل لوحة العشب ، رمز السلطة الملكية ، الى الملك الجديد .

يقطن الفلاحون في كهوف حفرت في التربة الصفراء ، او في اكواخ من مجتمع القرية والمدينة
الاعصان اقيمت مؤقتاً في الاراضي الزراعية ، او اخيراً - في الشتاء - في بيوت جمعت فكونت قرى وداكر . وتصنع هذه البيوت من الطين ، على شكل مكعب ، وتغطي بالقش . وتحيط بكل بيت حيطان او سياجات تحمي بالوقت نفسه البساتين الصغيرة التي تؤمن العيش اثناء الشتاء . وترتفع القرى غالباً حول منزل سيد البقعة يحميها جميعاً سور ، وارض البيت من التراب المرصوص ، وفيه موقد من حجارة يقترب بعضها من بعض ، وينطلق دخانه من ثقب اعد في وسط السقف . ولا يحتوي المنزل الا على باب ونافاذة اعدا على الواجهة الجنوبية . ويتألف الاثاث بنوع خاص من سرير بدائي هو سرير الزوجين . ومع بساطة وحقارة البيت فان كل جزء من اجزائه يرمز الى امر ما ، ويظهرون نحوه الاحترام العميق .

وللقرية التي لها بعض الامية هيكل لإله الارض ومدرسة وسوق يتكون من مساحة مربعة يقعون وسطها مبدئياً فارغاً ويتوزع البائعون في الاحياء تبعاً لنوع بضاعتهم ، وتخضع كل فئة لرئيس المحلة الذي يأتمر بأمر مدير الباعة . ويقرر هذا الاخير الاثمان والضرائب التي يسهر على تطبيقها المراقبون ، بينما يعنى رجال الشرطة باستتباب الامن والنظام .

ويسكن في المدينة الرئيسية صاحب الاقطاعة مع نسائه واولاده وخدمه وتابعيه ، وهي تضم ايضاً الكهنة والكتبة والمحاربين . وللقرية مساحة صغيرة (اذ لا يتعدى محيط العاصمة ثلاثة كيلومترات ونصف) يحيط بها سور جماعي يشتد او يقل مناعة ويرتفع في وسطه سور اقل شأنًا هو سور بيت السيد . ويكون هذا المنزل مدينة صغيرة ضمن المدينة الكبيرة ، ويحتوي على عدة فسمحات لكل منها باب عظيم وعلى ردهة الاستقبال التي يرتفع بجانبها هيكل الجدود وهيكل إله الارض ، واخيراً على مسكن الزعيم . وحوالي هذا السور الداخلي تبنى بيوت تابعي السيد ابتداء من المستشارين حتى رجال الصناعة . ولم يتطور بعد نظام تنسيق المدن ، هذا النظام الذي لا نثر عليه الا من خلال المبادئ التقليدية ، لذا نجد نقصاً كبيراً في تنسيق المدن الداخلي . ومع هذا فان المدن الكبيرة هي احسن هندسة يقسمونها احياء احياء وتحرقها شوارع مستقيمة .

الجنوبية . ويحتوي هذا السور على فسحة اولى نصب في وسطها حجر على شكل عامود يربطون اليه الذبيحة قبل تقديمها وترتفع على جانبي هذه الفسحة الشرقي والغربي بنائتان لاعداد الخدمات اللازمة . ويشيد هيكل الجدد في شقة السور الشمالية ويكون باب من الجنوب وهو عبارة عن بناء فسيح تكثر فيه العمد . وله سلمان ، احدهما نحو الشرق والآخر للغرب . وفي الوسط ، في المربع الذي يتسع بين العمد ، اعدوا معابد صغيرة يكون عددها خسا تحوي كل منها على لوحة احد الجدد ، وتوضع لوحة الجد الاكبر في المعبد الذي يقوم في الوسط .

ويعتبرون كل بيت وكل مدرسة امكنة للعبادة . ولا تصبح هذه الابنية المقدسة صالحة للعبادة الا بعد تكريس يلعب فيه دم الذبائح دور السائل المقدس . ويستدعي تشييد كل مدينة وكل بيت اقامة طقس خصوصي اذ ان كل قسم من البناء وكل شكل يعطى للأرض هماً من الامور الرمزية لا بل الإلهية التي لها اهمية كبرى . ويقررون بكل دقة الترتيب الذي يتبعونه لتنفيذ الاعمال ، وينتخبون المواد نسبة لدقائقها الرمزية . ويعبرون اهتماماً خاصاً بالابواب اذ ان الآلهة التي تسكن فيها هي قديرة جداً ، ويصدق القول هذا عن آلهة الجدران .

ان ديانة الصين القديمة تخضع لقوانين ورتب شبيهة بقوانين ورتب المجتمع الذي يغدو الديانة لها مثلاً . ان الحق بالاشتراك بأفعال العبادة هو محصور بالنسبة دون سواهم ، اذ ان افراد طبقة العوام يستفيدون من ثمار العبادة دون ان يشتركوا فيها . ولأعمال العبادة والذبيحة هدف جماعي وليس فردي ، وهي لخير الامة او الجماعة وليس لمنفعة الفرد لذا ينحون باللائمة على من يتوخى منها فائدة شخصية لا بل يعاقبونه اذ يعتبرونه عنصر ضرر يقلل من الخبز الذي يرجونه من تلك الافعال..

وللآلهة - ولا حصر لعددها - اهمية اقل شأناً من تطبيق القوانين والتقيدها تقيداً اعمى ، اذ هي التي تحفظ النظام العام وتجده ؛ وليست الآلهة على كل كلية القدرة وهي تجسم عادة قوى العالم الطبيعي . ومنها ما يختص باجزاء البيت ، واعمال الحقول ، والاشغال النسائية ، والنقابات والحيوانات . ويضيفون الى هذا الزون العظيم ، وان كان جوهره قليل الشأن ، جيش الشياطين والأرواح الشريرة (كوي) . والانفس المهملة (لي) . ومع هذه المجموعة الإلهية والشيطانية نجد رب الأعالي ، شنغ - تي ، وإله السماء وسيد الارض ، هيو - تو ، وإله أرض المملكة ، والجدد الملكيين .

ان رب السماء هو سيد الآلهة والانسان ، وملك الموتى ، وصانع الملوك ، والاداري والقاضي الذي لا يعلى عليه . وهو يعيش في قصر شيد في مجموعة بنات نعش ويدير الامور بواسطة مندوبين مجهولين تقل اهميتهم زمن التشاور . ورب الأرض هو قبل كل شيء إله مساحة المملكة . وهو زعيم آلهة أراضي النبلاء ويرأس حفلات تقليد السلطة ؛ وهو يسهر على ازدهار المملكة ، وعلى محاصيل الزرع وجميع الحوادث التي تهم حياة المجتمع . وهم يقدمون له كضحايا أسرى

الحرب (ويبدو بأن هذه العادة الدموية أخذت بالتضاؤل منذ القرن السابع ق.م .) ، وهو يسود على المذبح الذي يعدونه له في سور القصر الملكي . ولكل إقطاعة ربان للأرض وهما دون هيو - تورتبة : إله للأملاك الخصوصية وإله للأملاك المشتركة التي تخص الامارة ؛ وكانوا يعتبرون الاله الاول مطارداً وميتاً عند تبديل السلالة ، ولكن استمروا مع هذا بتقديم العبادة له .

والجدود الأموات هم حراس الأسرة النبيلة المباثرون . وتكشف لنا حقيقة هذا المبدأ عقائد الصين القديمة بما يختص بغايات الانسان الاخيرة : فلكل إنسان عدة أنفس في الوقت ذاته ، وتفصل إحداها ، الهون ، عن الجسد حالاً بعد الموت وتقطع طريقاً مليئاً بالآخطار قبل ان تصل الى السماء حيث تعطى المركز الذي يحث لها استناداً الى المركز الذي كان يحتله الجسم وهو على قيد الحياة . أما النفس السفلى « البو » ، فتبقى مع الجثة ويخشى ، ان لم تقدم لها الفروض المقررة ، ان تصبح شيطانا ، كوي ، أو عائداً بهم على وجه يزرع الرعب في أسرة الميت . وان بقيت بو ، تذهب لتحيا في عالم جوفي . وتحيا الانفس الهون والبو ، كل منها في عالمها الخاص ، حياة الانسان ذاتها محتفظة برتبها وخاضعة للمرض أيضاً . ولكن لا يهتم التشاؤ لمصير الأنفس اهتمامهم للعلم الذي يجعل منها جدوداً . وهناك طقس في غاية البساطة يسهل هذا التحويل الذي يتم بعد انتهاء فترة الحزن التي تدوم مبدئياً ثلاث سنوات . وفي هذه الفترة الانتقالية تكرم لوحة موقته في غرفة الميت ؛ وبعد انقضاء زمن الحزن تنقل اللوحة الى هيكل الجدود وتستبدل بلوحة نهائية تصنع من خشب الكستنا وعندئذ يقدمون للميت قرابين بصورة مستمرة فيصبح حامى الأسرة . ولكن تقل قدرته مع الزمن ويلقونه أخيراً بين مجموعة الجدود الذين لا تقدم لهم أي تقدمه شخصية .

وهناك اذن والحالة هذه عالمان إلهي وشيطاني يجب اكتساب عطفها . وقبل كل شيء ، على المرء ان يعرف معرفة دقيقة الآلهة والأرواح التي له علاقة بها بالنسبة الى مركزه الاجتماعي ووظيفته وواجباته . وبما أن الدقة في اقامة الطقوس وتلاوة الصلوات والمراسم هي أمر في غاية الخطورة وجب من ثم الاستعانة برجال كهنوت علماء يقظين .

وتقوم العبادة بصورة أولية على القرابين والصلوات والرقص ، مع ان التفاصيل تختلف باختلاف المكان والإله والظرف . وتقدم طقوس العبادة على أنغام الموسيقى . وتكون القرابين دموية بصورة شبه مستديمة ويختلف حيوان الذبيحة حسب الظروف ، ويكون لونها كما يفرضه مركز المقدم . وتكثر القرابين البشرية ولكنها تقتصر على بعض الطقوس الخصوصية : فتيات يقدمن كزوجات للآلهة ، أو أسرى الحرب يقدمون لرب الارض والجدود ، أو سحرة ومشوهون لاستدراار المطر في أوقات الجفاف الشديد ، أو بطانة النبيل أو الملك لمرافقتها في قبرها . وقد تذبح هذه القرابين أو تحرق أو تدفن أو تغرق . ويقدمون أيضاً النباتات (الجاورس) أو الحيرير أو الماء أو النار التي تنتج عن انعكاس الشمس على مرآة مقعرة الخ . وللصلاة قوة شبه سحرية

وثنمر ثمارها ان تليت بصورة دقيقة وفي الوقت المناسب وفي الظروف المتوجبة . ويقوم الرقص على حركات مقدسة تمثل الامور التي يريدون ان تحدث ، وتعيد الى الذاكرة المغامرات الميثولوجية التي يتوجب على المرء ان يحققها لنجاح العالم . والموسيقى هي عربة الآلهة ، فهي التي تجذبهم وتحملهم وتحفظ بهم ، وتشترك فيها الاصوات والآلات (العود والطبل والقيثارة) . وفي طقوس بعض القرابين كالتي تقدم الى الجدد يوجد وسيط (شي ، جثة) ينتخب من اقرباء الميت الذكور يمثل المتوفى الذي ينطق بلسانه ويتمص فيه لمدة من الزمن . ونجد هذا الطقس في عبادة إله الارض الذي يعد كميث ايضا .

ويتطلب تقديم الذبيحة بطبيعة الحال دقة ونقاوة في الطقوس ليس فقط بما يختص بالأدوات والتقديم ولكن ايضا بمقدمي القرابين والاشخاص الحاضرين .. وينال الجميع هذه النقاوة بطقوس تطهيرية وممارسة فترات تقشف تطول او تقصر .

وتقسم السنة فترات فترات أعياد وطقوس يتعلق بعضها بالمواسم الزراعية والاخرى بعبادة الجدد . وتضاف الى هذه الأعياد الموسمية الاحتفالات الطارئة وسائر احتفالات العبادة العادية التي توحى بها الحوادث اليومية او الظرفية (الصيد والحرب ومراحل الفتوة الخ) . ولكل منها عبادة معينة ومقررة بكل دقة وقد يغدو وبالأا اقامتها في ظروف غير التي حددت لها . ولا يلحق هذا الضرر مباشرة بالفرد ، ولكن بتعاقب الفصول وبمحسن سير النظام العالمي ، لذا غدا القيام بها فرضاً لازماً على الذين نيط بهم السهر على النظام الكوني ، اعني النبلاء وبالدرجة الاولى الملك . ويحدث موت الملك وحده بعض البلبلة في سلسلة الاعياد العادية اذ تتوقف بعضها أثناء فترة الحداد .

ان الملك هو دون شك مقدم القرابين الاول . فعليه وعلى فضائله يستند تنظيم السنة الزراعية . فهو يبدأ الربيع بتقديم ذبيحة كبرى لرب السماء ، ثم يقوم بأول عمل فلاحية فيشتق ثلاثة أنلام في حقل مقدس ، ويحذو حذوه في هذا العمل الرمزي جميع اصحاب الارض النبلاء في كافة أرجاء المملكة . ويفتح الملك ايضا موسم الزواج ، ثم تقيم كل قرية حفلات مماثلة . ويحددون النار ويستعيدون من جديد النشاط في مختلف مرافق الاعمال . وفي الصيف تقدم القرابين الى آلهة الجبال والانهار والينابيع والامطار ، ثم تأتي أعياد الحصاد واختتام الحياة الزراعية . وتبتدىء فترة الشتاء بذبحة كبرى لإله السماء بواسطة جد السلالة ، الملك «ون» ، وتوأ أثر ذلك يذهب الملك الى الضاحية الشمالية لاستقبال الشتاء واصدار الأمر بحجز الفلاحين في القرى . ثم يأتي دور القرابين الملكية لرب الارض والجدد الى ان يحين أخيراً عيد الحصاد ، وهو من أهم أعياد السنة . وتعاد حلقات هذه الحفلات والأعياد في الربيع دون ان يتبعوا التقويم الرسمي الذي يحمل في طياته شوائب فادحة بل حلول الفصول الطبيعية .

وتتخلل هذه المواسم أعياد مقررة يحددون أوقاتها ايضا تبعاً لحلول الفصول دون اعتبار

التقلبات الرسمية ، وهي تتعلق بصورة أولية بالجدود الذين تقدم لهم مع هذا عبادة يومية . ومن هذه الاعياد ما يقام مرة كل ثلاثة أشهر او كل سنة او كل خمس سنوات ، وأشهرها الذبيحة الملكية التي يقدمونها للجدود كافة بما فيهم الجد الاول . وبهذه المناسبة ' تقام وليمة جماعية وحفلات رقص صاخبة يشترك فيها الملك وأولاد الأسر الكبرى الذين يقبلون في البطانة الملكية .

وهكذا فالحياة كلها في الصين القديمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأفعال دينية حددوا جميع دقائقها بعناية كلية ، وبدونها لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً منظماً ومفيداً . والديانة ، وقد أسست على الامور الطقسية ، هي قبل كل شيء ديانة جماعية ترجى منها المنفعة وتوافق كلياً تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات . ولكن نلاحظ تطوراً دقيقاً يظهر في منتصف دور النشاو سيقود الديانة القديمة الى حالة جرد وتنظيم عقيم يستبج معها الصينيون الذين وقفوا على مبادئ الفلاسفة ورجال الأدب بعض التحرر .

تشتد الحركة الفكرية منذ أواخر القرن السادس ق . م . اذ يظهر في هذه الحقبة الفلسفة الرجل الذي لعب أعظم الادوار في الحياة الصينية العقلية : كونفوشيوس (كونغ كيو الملقب بتشونغ - ني) ويميل رجال الأدب الأكثر تحراً نحو الشك والارتباك في كل شيء حتى نفي وجود الآلهة والارواح واستنكار بربرية بعض طقوس العبادة كتقدمة الذبائح البشرية . ويسعى كونفوشيوس في تعاليمه للإبقاء على التقاليد مستنداً الى كتب العصور القديمة والى طقوس وسياسة العهد المنقرض . لذا فإن تعاليمه الروحية هي موجهة أساساً الى الطبقة الارستوقراطية وتهدف الى حسن قيادة وحكم الشعب استناداً الى الدرس وترويض النفس الروحي ، هذا الترويض الذي لن يعود بالنفع على صاحبه بل عكس ذلك على الآخرين فيستتب اذ ذاك حسن التفاهم الذي هو الدعامة الكبرى للنظام العام . والوسائل الكفيلة بالوصول الى هذه الغاية هي طقسية ، كما كانت في عهد التنظيم الديني ، وتساعد الفرد ليصبح إنساناً أسمى ، وذلك لخير المجموعة ، ولخير الشعب بكامله . ويستند كونفوشيوس ببراهينه وإثباتاته وأمثله الى ضرورة التشبه بقديسي العهود القديمة والوصول الى فضائلهم ، اذ هذا هو الشرط الاساسي لحفظ النظام والتوازن العالميين .

وقد أنجبت تعاليم كونفوشيوس فيلسوفاً عظيماً هو موتي ، أو بالاحرى موتسو ، الذي عاش في القرن الخامس . وتصفّر لديه المعطيات الميثولوجية أمام الاستنتاجات الفلسفية أو تفقد التقاليد الكثير من امتيازاتها اذ يكره تنظيم الطقوس المادي الذي لا روح فيه . واستناداً الى تعاليمه تفقد الديانة صفتها الجماعية والاجتماعية لتصبح حقاً ديانة الفرد اذ لا يؤسس تفكيره على نفوذ وسلطة قديسي العهود القديمة بل على قوة القياس الفلسفي . ان مبادئ محبة الغير التي نادى بها كونفوشيوس والتي كانت غايتها خير إحدى الجماعات أصبحت مع موتسو تعاليم المحبة الجامعة الشاملة حيث تتساوى كل الفئات الاجتماعية وطبقات الأفراد . وأساس تعاليمه هو الخضوع

لإرادة رب السماء وعبادة الآلهة . وتوافق هذه النظرية ، وإن كانت ثورية في بعض نواحيها ، التغييرات الجذرية التي شهدتها المجتمع في ذلك العصر ، كما أنها تتناغم مع الوثبة الروحية والحنو على الغير الذي كان يغذيها في الهند تلامذة شكيموني ، والتي لم تعرفها الصين إلا في وقت لاحق جداً .

وبجانب جهود هذين المعلمين الكبيرين ، فقد قامت مدرسة ميتافيزيقية على مبادئ السحرة الأقدمين . وهم يقارنون بالعالم الحسي عالماً وهمياً ويؤكدون مبدئياً بأن الأساليب السحرية تؤثر على أحدهما بواسطة الآخر . وهم يلجأون إلى الين واليانغ لتفسير تتابع السنة الزراعية وكل المظاهر التي تنتج عنه . ولا تتعدى هذه النظرية في أول الأمر محيط فئة مختارة من النبلاء ولكن منذ أواخر القرن الخامس ق. م. يعتنقها كل الفلاسفة ، ثم تتسرب رويداً رويداً إلى فئات أقل ثقافة ، وتستمر إلى يومنا هذا محوراً للفكرة الصينية .

وهكذا تتكون رويداً رويداً تفاسير دينية وفلسفية جديدة تؤلف وحدة منذ القرن الرابع قبل العهد المسيحي ، عندما تحدث العوامل الحضارية المتوسطة تحويراً في الميثولوجيا وتأتي بعلومات فلكية جديدة مختلفة . ويتألف مع الزمن هذان العاملان الطقسي والفلسفي دون أن يظهر بينهما تناقض ويكونان عقلية لا تزال الصين تحتضنها إلى عصرنا الحاضر .

ليس لدينا عن أبنية ذلك العصر إلا معلومات أدبية إذا كان المواد المستعملة — الطين الفن والخشب والآجر والقش — هي مجرد ذاتها مواد عرضة للتلف . ولا يبدو بأنه كانت للأبنية التي خصصوها للموتى حظ أوفر بالديمومة . ونعرف معرفة أكثر وضوحاً وثبوتاً الأدوات التي استعملوها في إقامة العبادة ومختلف الطقوس ، وهي تتألف ، كما كان الأمر في العصر السابق ، من أوان وأدوات نحاسية وأسلحة وأشياء رمزية من الذهب . ولا نجد إلا أدوات قليلة جديدة تمثل الإنسان . ويتكون الإطار بصورة مستمرة تقريباً من عناصر حيوانية عبروا عنها بفن خصوصي وشملت حيوانات ميثولوجية وهمية نظروا إليها وجهاً لوجه أو من جوانبها . وقد نقشوا على سطح قطعة النحاس بكاملها نقشاً دقيقاً جداً ، تبدو عليها الحيوانات بصورة نادرة بينما تتشابه على سطح المعدن خطوط ملتوية . إننا نجعل الرمز الذي يهدف إليه هذا النقش ، ولكن تساعدنا أشكال الأواني على تنظيمها فئات فئات محددة العالم ، توافق كل منها الطقوس الذي صنعت لأجله . ولا جدل في حقيقة صفة هذه الأواني المقدسة . وكان الملك نفسه يحترقها ومنها الآلات الشهيرة ذات الثلاثة أرجل التي حفظت في باب من أبواب العاصمة . وبصعب علينا أن نميز بوضوح مراحل هذا التطور الفني للنحاس منذ عهد الشانغ حتى أواخر زمن التشاو . ولكننا نستطيع مع هذا أن نلاحظ تطوراً فنياً بسيطاً تصبح تفاصيله رويداً رويداً جامدة لا حياة فيها ، ثم تتشابه وتتنضمخ إلى أن تصبح في عهد الممالك المتقاتلة أمراً بسيطاً جداً فيه عوامل تزيين أكثر دقة وبساطة — وهي تظهر فعلاً ذوقاً أشد رسوخاً وأعنى دقة ولكنه ذوق يفقد في الوقت نفسه التعبير الصاخب والقلق الذي كان سائداً أيام الشانغ والتشاو .